ق

قصص قصيرة

حـــدث فى

بلاد التراب والطين

حكايات وتصاوير

عـــزت القمحـــاوى



دار سعاد الصباح

الطبعـــــــة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ١٩٩٢/١٠٤٠٢
I.S.B.N. 977—5344—52—2

دار سـعاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ – الكويت
القاهرة – ص.ب : ١٣ المقطم
تليفون : ٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩
٧٠٩٥٨٣
فاكس : ٧٠٩٥٦٣
٥٠٦١٠٣٠

الاشراف الفنى : حلمى التونى

إلى أمي ...
كي تقر عينها ولا تحزن

أولاً : الحـكايات

الوقائع غير الشهيرة في حياة امرأة كانت جميـــلة مع زوجهـــا النُص

هـــــى ...

عواطف العبد ، امرأة فى العقد الرابع ، وجهها النحيف الجاف يحمل تقاطيع لا تخلو من ملاحة وتشى بجمال كان قبل أن تعرف زوجها النُص وتنجب أولادها الخمسة وتخشوشن أطرافها من العمل فى الحقل كالرجال .

حاشية غير هامة

عواطف لاتزال هناك ، ويستطيع أى منكم أن يذهب إليها ليسألها فى الوقائع التى سأرويها بعد قليل .. وفى حالة ثبوت المبالغة أو الكذب لا تترددوا فى رفع دعوى تعويض على الناشر ، ولكن لا أنصح من يقدم على هذه الخطوة بإيراد اسمى فى دعواه حتى لا يضيع وقته ، فماذا بوسع الريح أن تأخذ من البلاط ؟

عواطف تحلم برجل

فى بيت أبيها كانت اللعبة ، عروسة صنعتها بنفسها من خرقة قديمة وحشتها بالقطن .. القلب أبيض يحلم برجل يأخذها على الحصان الأبيض لتعيش معه فى تبات ونبات ، وتنجب له الصبية والبنات .

وفى جنى القطن تتقدم جميع الأنفار ، الحزام على الوسط يلم الجلباب الواسع المرخى ، تتحرك اليدان الماهرتان لتجمع قناديل القطن المشرعة ، ثم تمتد اليد الممتلئة إلى الطوق لتفرغ ما جمعته من قطن ، يمس دفئه ونعومته الثدى النابت فتكون النشوة اللذيذة التى توقظ الحلم ويكون الغناء :

ادحرج واجرى ... يا رمـــان وتعالى على حجرى ... يا رمان

و ... تميل عواطف تساعد العجوز التى تجاورها فى اللحاق بالأنفار الذين سبقوها ، فيكون الدعاء لهذه الصبية براحة البال فى بيت العَدَل .. دعاء يوقظ الحلم وتتورد له الوجنتان وتطغى النشوة والشوق اللذيذ .

وأمام الفرن تتربع عواطف بالساعات تنتهى من خبيزهم فلا تغادر ولكن تساعد الجارات ، فيكون الدعاء براحة البال فى بيت ابن الحلال ، فيزداد احمرار الوجنتين اللتين فى لون الدم من نار الفرن ، ويستيقظ الحلم حـــاراً .

« النُص » يخطب عواطف

كان أبوها يداعبها فى صغرها ، إذا أهَلت عليه من بعيد تحمل إليه غذاءه فى الحقل يقول .. وحياة النبى ما أرضى لك بأقل من دكتور ، هل حقاً يؤهلها جمالها للفوز بشاب موظف ولو بالدبلوم يأخذها ليعيشا فى البندر ؟ .. أبوها رفض حتى الآن ثلاثة خطاب وأمها تقول « من كتر خطابها بارت » ولابد أن توافق على الرابع وكان الرابع « النُص » .

قال أبوها : على بركة الله « النُص » رجل لا يعاب .. صحيح انه باع ثلاثة أفدنة من ميراثه إلا أنه لايزال من أغنياء البلد ، يملك خمسة أفدنة قطعة واحدة كالمنديل على رأسها الساقية ، لا يشاركه فيها أحد ،

كما أنه مقطوع من شجرة ليس له سوى أمه الكفيفة التى لم يبق بينها وبين القبر إلا خطوة .

قالت عواطف : لكنه مستهتر ينـام النهـار ويقـوم الليـل مع شلـة الحشاشين وأصحاب السمعة السيئة .

قالت أمها : لا تكونى عبيطة .. يده فرطة والقرش عنده لا يساوى وستعيشين معه فى بحبوحة .. أما عن السهر والأصدقاء فبيدك أنت تغييره ، وصدق المثل الذى يقول « أن الرجل بحر والمرأة الشاطىء » وستكونين شاطىء النُص الذى يلملم وراءه ويعلمه كيف يصون القرش .

عواطف فى بيت النُص

على سنة الله ورسوله تم الزفاف وغنت النساء ، وحتى لا أتهم بالمبالغة أقرر أن الحفل لم يحيه راقصون أو راقصات ولم يغشه مطربون أو مطربات ، لكن الحاج توفيق جاء بالمهرة وجعلها ترقص على مزمار سالم وطبلة ابنه زلطة .

وكانت هذه هى الليلة الوحيدة التى لم يسهر فيها النُص مع شلـة الحشاشين كما سترون فيما بعد ، ولا يهمنى أن أحكى لكم عما حدث فى تلك الليلة ، فذلك شيء يؤلم عواطف ويصيبها بالخجل فى نفس الوقت وهو الشيء الوحيد الذى مازالت وجنتاها تتوردان كلما جرى له ذكر .

فى الصباح نهضت عواطف رغم الألم الذى يهدها ، فأيقظت أمه وقبلت يدها كما ينبغى لعروس تسعى لود حماتها ، ثم كنست الدار ، ودخلت توقظ النُص ليكون فى استقبال أهلها الذين سيأتون مهنئين فى « الصباحية » ولكنه أدار وجهه إلى الحائط معلناً أنه لا يستطيع استقبال أحد لأنه اعتاد ألا يستيقظ قبل العصر ، وعندما طرقت أمها الباب وكانت قد سبقت الرجال .. فتحت لها عواطف وانتحت بها جانباً فى المندرة وأخذت تبكى .

قالت أمها : سأعود قبل أن يتحرك الرجال ، وسنأتى عندما يستسقظ النُص ، ونصحتها بألا تعتاد الشكوى من زوجها - فالرجل يكره أن يفشى سره وإن أشعت خطأه فسوف يتعذر عليك اصلاحه .

النُص لا يحب العزلة

بدا النُص متململاً متبرماً من وفود أقاربها الذين جاءوا جماعات لتقديم التهنئة و « النقوط » لاثبات أن للبنت عزوة وشجرة كثيرة الأفرع مترابطة ، وانتهز فرصة انفضاضهم لصلاة العشاء ، فارتدى شاله وسحب الخيزرانة . رجته ألا يخرج فهذه الليلة الثانية له معها .. ماذا يقول الناس ؟

قال : « هذه حياتى ، أنا رجل وأحب مجالس الرجال ، ولابد أن تعرفى أننى لم أشتر سجانى بفلوسى » .

- أأنت أشتريتنى يا نُص ؟

كما تفهمينها وافسحى الطريق .

.. ومع صياح الديكة عاد كالثور الهائج ، جذبها إليه ، أخذ ما يريده ثم أدار وجهه إلى الحائط ، وغط فى نوم ثقيل .

طلاق البنت عـــار

فيما تلا ذلك من ليال ، انتقلت السهرات إلـى بيت النُص ، تمتد السهرة حتى الصباح فى باحة الدار تكشف المسافة ما بين حجرة النوم والحمام ، لا تستطيع عواطف أن تمارس حريتها فى بيتها كما تفعل النساء ، إذ ما رغبت فى دخول الحمام لابد أن يراها كل هؤلاء الرجال ، تغلق حجرتها خلفها وتنام ، تسمع السعال والبصق والنكات الوضيعة ، يزعق النُص بين الحين والحين : « يا بنت » .

تنتفض وتذهب بشعرها الذى لمته على عجل ليأمرها بتغيير ماء الجوزة أو جلب بعض من الخشب أو امداده بأوقية شاى .

وفى النهار عليها أن تتحرك بحساب ، ألا يسقط طبق من يدها أو يقفز ديك ، يقلق النُص فى نومه فيقوم معكر المزاج قبل الأوان ، وعند العصر لابد أن يكون الديك المحمر جاهزاً مع صحن المرق ، ولابد أن تكون عدة الشاى بجواره ، فهى لا تعرف الشاى الثقيل الذى يحب النُص أن يشربه ويصنعه بنفسه .

تقبل يد حماتها : « هل يرضيكِ هذا يا أمى » ؟

ترد المرأة العمياء : « ابنى طول عمره حر ، أبوه رحمة الله عليه لم يجبره على شىء ، فهل تأتى حرمة مثلك لتتحكم فيه وتحد من حريته » ؟

ذهبت عواطف إلى بيت أبيها ، بكت ، وشكت .. لكن أمها حذرتها : « طلاق البنت عار ، ليس فى العائلة بنات طلقن قبلك ، وكلهن يواجهن مصاعب أكثر مما تواجهين ، ثم ألست تجدين ما تأكلينه ؟ أنصحك يا بنتى أن تظللى على عشك وأن تربطى طيرك بالعيال » .

عواطف تحاول مرة أخرى

فاتنى أن أقول لكم أن عواطف بدأت منذ أيام تشعر بدوخة وغثيان ولم تجد من النُص التشجيع ولم تجد فى نفسها الرغبة لتنقل إليه هذا الخبر ، لكن لماذا لا تعمل بنصيحة أمها والمجربات من النساء ؟

قالت وقد افتعلت البهجة وعمدت إلى التشويق : « أقول لك سراً يا نُص ؟ » .

ولما لم ينظر إليها أو يجيبها تراجعت بهجتها ، لكنها تماسكت وقالت بصوت لم يخل من دلال : « أنا أشعر بدوخة وغثيان ، وأشعر برغبة فى أكل طين الفرن المحروق » .

قال دون أن يلتفت إليها وبصوت يخلو من أى انفعال : « حَبَل ؟ » .

قالت بجدية أسيانة : « أظن ... » .

وتساءلت فى نفسها ، « هل ينجح هذا القادم الصغير فيما فشلت فيه أنا » ؟

عواطف تدعى الهنـا

لم تخلق لهذا السجن ، هى التى عاشت أحلى أيام شبابها وسط الأنفار فى جنى القطن وشتل الأرز ، فى الصبا والطفولة مع أنفار الدودة حيث الغناء الجميل الذى يبدد التعب ويجرى الدم فى العروق ، هى التى عاشت أجيرة لم تشعر يوماً بأنها دون الناس ، بل إن أباها كان يقسم على أنه لن يزوجها إلا لدكتور ، ولكنه انحنى للنصيب ، وزوجها للنُص ، رضيت هى بالنُص .. والنُص لا يرضى ، متجهم أبدا ، ويصدر الأمر من طرف أنفه الأفطس لا تشاركه طعامه ، يلتهم كل يوم ديكاً أو زوجاً من الحمام ، يأتى عليه وأحياناً يبقى نصف الصدر لأمه الضريرة ، أما عواطف فلا يسأل هو أو أمه ماذا تأكل ، لم يسألها يوماً بماذا تغدت ، أو تعشت ، إذا عافت نفسها المِش وبقايا الخبز اليابسة ، ذهبت إلى الحقل جمعت بعضاً من البامية أو بحثت بين أعواد الذرة عن بعض من أوراق الملوخية ، لتطبخها وتأكل منها يوماً أو يومين ، تعود بعدها لصحن المِش ، زحف الذبول على الوجه النضر وتحول اللون إلى الأصفر وكلما سألت إحدى الجارات عن سر ذبول الوردة ، أجابت بأن النُص يجعلها لا تعوز شيئاً ولكنها لم تتعود القعود فى الدار .

كلام عن المستقبل

اطمأنت عواطف إلى أنها لم تنس شيئاً ، الديك أمامه بحوائجه غير منقوص ، كوب الماء ، رغيف الخبز ، الموقد والكنكة وعلبة السكر بداخلها علبة الشاى الأصغر منها .. جلست على مقربة منه .

قالت : « أريد أن أتحدث إليك يا نُص » .

قال وقد دس الورك فى فمه : « عن ماذا » ؟

قالت : « عن المستقبل ، مَولودنا الأول فى الطريق » .

- وماذا أصنع ، الأرض يزرعها سليمان الفحل ويعتنى بها كأحسن ما يكون .

- وكل فترة يأتى الجار لنبيع له قيراطين لينقل الحد بيننا وبينه وهكذا يلتهم كل ما نملك بالتقسيط المريح .

- وماذا أصنع أنا ؟

كما يصنع كل الناس لمستقبلهم ، وإذا كنت لا تشترى وتجدد الاملاك لاولادك فليس أقل من أن تحافظ على ما بين يديك .

أحافظ على ما بين يدى ؟! ومم ننفق ؟ وهل تعتقدين أننى يمكن أن أجد عملاً بعد الثلاثين ؟

- على الأقل نشترى جاموسة ، تأكل من خير الأرض ونأكل نحن من خيرها ونستعيد الأرض من يد سليمان الفحل ، نزرعها لحسابنا بدلاً من المزارعة التى تعطى لسليمان نصف الإنتاج .

- قلت لك لن أعمل فى الأرض وحتى ليست لدى القدرة على البحث عن أجراء ومتابعتهم .

- لا عليك .. سأقوم أنا بالأعمال الخفيفة وسيساعدنى أبى ، وسنستأجر الرجال للأعمال الكبيرة .

- إن كان الأمر كذلك نبيع قيراطين ونشترى الجاموسة .

عواطف تعود للناس

طرأ بعض التغيير على حياتها ، أحست ببعض الانعتاق بخروجها إلى الحقل كل صباح لإطعام جاموستها .. ترى الناس ، تتحدث إليهم .. فى الطريق ، مع جيران الحقل ، وعلى الترعة تجلس مع السيدات اللائى يغسلن الملابس فى الماء الجارى ، وقبل موعد استيقاظ النُص لابد أن تعود ، تعد غداءه ، ليكون جاهزاً عندما يقوم وتقدم لأمه طعامها ثم تعود للحقل برغيف وقطعة جبن لتأكلها فى الخلاء ، حيث تزداد الشهية مع عود من الخس ، وتقوم لتضع لجاموستها العشاء وتعود بها عندما يسقط قرص الشمس إلى أطراف الشجر .

ولكن .. هل أخطأت عواطف عندما بادرت فوعدت بحمل المسئولية وحدها ؟ لا تجهدوا أنفسكم فى البحث عن إجابة لهذا السؤال ، فهى أيضاً لا تعرف .. الخروج أتاح لها الاحساس بأنها مازالت تعيش ، تتحرك كما تريد بدلا من حياة الدار المملة ، فى الصباح لابد أن تتحدث بصوت خفيض حتى لا تزعج النُص وفى المساء عليها ألا تغادر حجرتها لأن الدار تعج بالأغراب ، نصف الواعين أو فاقدى الوعى الذين لعب الحشيش برؤوسهم وهى بين الصباح والمساء لابد أن تستمع لتعليمات المرأة العمياء وتنفذها دون إبداء للضيق الذى يتملكها ، ولكن أليس هذا الأمر مثيراً لسخرية الناس ، عندما تعمل الحامل وبطنها منتفخ أمامها بينما ينام الرجل فى الدار ؟

وهل تقل شيئاً عن سميحة الحولاء ابنة « سعيد أبو منتصر » التى تعيش سعيدة فى بيت زوجها ، يلبى كل رغباتها رغم أنه يعمل فى حقول الناس ولا يملك قيراطاً مما يملكها النُص ؟

حقاً ... درهم بخت ولا قنطار جمال .

عواطف تلد عـادل

هى فى دار النُص تخدم فقط حتى إذا جاء المخاض ، وأصبحت فى حاجة لمن يرعاها تعود إلى دار الأب ، فهناك الأم الحنون التى لم ينقطع نَفَسَها من الدنيا ، وستذبح الديوك وترعى المولود ، حتى إذا كان السبوع وزال الخطر ، جاء النُص وصحبها إلى بيته كما يفعل كل الأزواج الذين تلد زوجاتهم أطفالاً .

عندما زغردت « الداية » قالت عواطف : أسميه عادل ، هو الذى جاء ليخلصنى من ظلم أبيه .

الولد مليح مثل أمه خفيف الظل .. ولكن النُص اعتاد ألا يرى فى الورد إلا شوكه ، يثور كلما بكى ، يسبها كلما تحسس بللاً فى الفراش ، مستمر فى حياة الغجر التى يحياها ، ينام فى الدار وتجرى هى من أجل المعاش ، تقف وسط الرجال الذين تستأجرهم عند بذر الأرض أو عزقها ، وهى معهم عند الحصاد ، أما الأعمال التى لا تتطلب جهداً كبيراً فإنها تؤديها بنفسها دون حاجة إلى الكراء ، خشنت يداها وتشقق القدمان واستطال الوجه الذى كان مدوراً كالرغيف الخارج لتوه من الفرن ، وارتسمت أمارات الخيبة ، حتى المرأة العمياء لم تطلب مرة حمل الطفل ، تخاف على ملابسها وفرشتها من النجاسة .

هل أخطأت عندما بادرت بتحمل المسئولية فساعدت النُص على الركون إلى الراحة ؟ هل كان ليستمر فى حياته هذه يبيع فدادينه الخمسة قيراطاً وراء قيراط ؟ ماذا كان يضيرها لو باع النُص أرضه أو تقطعت أشلاؤه للكلاب ؟ .. أنها تشقى طوال الأسبوع تحرم طفلها وتحرم نفسها حتى إذا جاء السوق باعت السمن ، ليأخذ النُص الفلوس يسد بها دينه عند حسن المعداوى تاجر الكيف ، أو تأتى زوجة حسن تقول أن زوجها اتفق مع النُص أن نأخذ سمنكم ، أنا أشقى ، وآكل السمن النباتى ، وزوجة

المعداوى تأخذ خير جاموستى مقابل قطعة من الأفيون فى حجم حبة العدس ، يلوكها النُص تحت لسانه وقطعة من الحشيش فى حجم حبة الفول يدخنها النُص مع أصدقائه ؟

عواطف تستأنف الانجـــاب

طلاق البنت عار ، وما رفضته أمها وهى خالية مستحيل قبوله ومعها طفل ، من يتزوج مطلقة معها طفل سوى عجوز تمرضه ، أو صاحب عيال تكون مقصرة إذا تركت لهم الحبل على الغارب وتكون ظالمة إذا ضربت أحدهم مؤدبة ؟

دبرى حالك يا عواطف ، وإذا كان الرجل قد مال فالبركة ستحل فى العيال وقد ينصلح عندما تزيد الأعباء ولابد أن يختشى من أولاده عندما يكبرون .

وأنجبت صلاح ، هى التى لو وجدت غير هذا الطريق لسلكته ، وبعد صلاح جاء عبد الرزاق ، وبعد عبد الرزاق جاء حافظ ، ثم سعيد ، خمسة يشرحون القلب الحزين وكان الناس إذا رأوهم تعجبوا من النُص الذى لا يحمد الله على زوجته التى تساوى مائة رجل ، والأولاد الذين يسرون العين والقلب ، ليتركهم ويجرى وراء حميدة بنت الجحش الأرملة الشابة التى يسهر عندها النُص بلا حياء ، ولم يردعه إلا مخيمر العبود الذى يقع بيته فى أول الحارة التى تسكنها حميدة ، فقد وقف على باب الحارة وأعلن أنه سيقطع رقبة من يدخل هذه الحارة من غير سكانها ، وزعق : لسنا قوادين يا ولاد الكلب .

وكانت فضيحة وصلت أصداؤها إلى عواطف .

النُص يحج بيت الله

استخرج جواز السفر وقال سأبيع الجاموسة وقيراطين وأذهب للحج هذا العام .

رحبت عواطف بالفكرة ، الجاموسة سأرتاح منها ، ريعها يذهب لحسن المعداوى وزوجته ، وأولادى محرومون من خيرها ، وهذه ليست المرة الأولى التى يبيع فيها النُص أرضاً ، لكنها يمكن أن تكون الأخيرة ، ولِمَ لا فقد يتوب الله عليه ويكون الحج بداية تحول فى حياته ، يعود ليلتفت إلى أولاده ومستقبلهم ، أعانه الله على أيامهم القادمة .

حاشية هامة

قد تعجبون ، لماذا يقدم النُص على الحج ، وهو الذى لم يشاهد فى الجامع قط ، وإن كان يصوم رمضان بحكم العادة ، يدخن الحشيش فى لياليه حتى الفجر ؟

نسيت أن أروى لكم ما جرى بينه وبين جاره الحاج جاد ، الذى يسكن الدار المقابلة لداره ، فقد دأب النُص على نقل السهرة إلى الحارة فى الليالى القمرية ، يفترشون الحصير تحت نافذة الحاج جاد ، يتصاعد الدخان وأصوات المساطيل ، وعندما ضاق الحاج جاد بالأمر ، وبعد توجيه الملاحظات بالحسنى خرج وصرخ بالصوت العالى : – يا ناس يا كفرة هذه الحارة لنا فيها مثلكم – ثم دخل داره وعاد بالفأس ، فشق قناة طويلة ، ووقف يعلن للناس بعصبية .. الحارة أصبحت حارتين ، هذه سكة المسلمين وتلك سكة الحشاشين الكفرة .

وانطلق النُص ليشتبك معه ، لكن الناس أعادوه وهو يسب – نحن كفرة يا خسيس أصبحت أنت حامى حمى الإسلام لأنك ذهبت إلى الحجاز ؟ .. أنت تعرف أننى أكلت أفيوناً وعفرت حشيشاً بوزنك من الفلوس – .

ومن ليلتها قرر النُص أن يحج وأن يوحد الحارة مرة أخرى ويردم القناة ، فساعتها لن يكون هناك مسلمون وكفرة .

عواطف تنتظر عودة النُص

نظر حافظ إلى الطائرة التى مرقت فوق باحة الدار وقال : اذهبى يا طائرة لأبى وقولى له يعود إلينا ، لقد اشتقنا إليه .

بكت عواطف ، وتعجبت هى التى تمنت دوماً أن يموت لتتفرغ لتربية الأولاد ، ولكن حقاً ظِل رجل أفضل من ظِل حائط ، لاشك أن الاولاد يهابونه فلا يعتدى أحدهم على أخيه كما أن ظله فى الدنيا يجنبهم جور الظالمين ونظرة الاشفاق فى أعين الناس ، سيعود من الموقف العظيم شخصاً آخر ، سيقلع عن تدخين الحشيش والسهر مع الرعاع حتى الصباح ويسلو حميدة التى تضحك على الرجال لا تبغى إلا فلوسهم .

ذيل الكلب لا يستقيم

الحاج النُص عاد ، توقفت السيارة أمام الدار ونزل فى ملابسه البيضاء ، زغردت عواطف ، وجرت تحمل الحقائب الكبيرة ، وامتلأت الدار بالمهنئين .. وضع النُص الحقيبة الصغرى بجواره ، وزع المسابح والطواقى البيضاء ، أما سجادة الصلاة فلأقرب المقربين حتى إذا ما انقطع المهنئون ، أغلقت عواطف الباب ، واستلقت بجوار رجلها العائد .

قالت : لن أرهقه بالاسئلة ، الحقيبة الكبيرة لاتزال مغلقة ولابد أنها لى أنا والأولاد .

وفكرت – لابد أنه أتى لى بقطعة قطيفة سوداء تنفعنى فى المناسبات ، وقطعة خضراء أجلس بها فى البيت فتضىء وجهى الذى

أحرقته الشمس ، وقميصاً أحمر أرتديه بعد أن ينام الأولاد وأعوض معه ما فات من أيام الشباب .

وفكر – القطيفة السوداء تريد وجهاً أبيض ، وليس وجه عواطف الاسود الممصوص ، والقطيفة الخضراء تليق بجسد حميدة الممتلىء ، أما القميص الأحمر بلا أكمام فكأنه نسج خصيصاً من أجل حميدة ليكشف عن ذراعيها البيضاوين وينساب رقيقاً على الثديين النافرتين كحمامتين ، ولكنه عاد فتذكر ، قال أنا الآن كيوم ولدتنى أمى ولا ينبغى أن أسود صحيفتى ، لكن عواطف لم تعد المرأة التى تملأ العين أو تكف النفس ، أغمض عينيه وترك نفسه تروح وتجىء بين حميدة الريانة كبقر اللبن ، وعواطف المتكومة بجواره ككومة من القديد ، ولم ينم فى تلك الليلة إلا بعد أن استغفر الله واستعاذ به من الشيطان الرجيم ، وعاهد نفسه ألا يطأ حميدة إلا فى الحلال .

عبد الرحمن سوف يعود

عند مدخل البلد رأيته ، عوداً يابساً وأشداقاً مطبقة . قلت : محمد ؟ قال : هو بعينه . تعانقنا عناقاً أعاد إلي نشوة الظفر الأولى عندما كنت أمسكه من قفاه وأصيح : حرامى .

ياه .. كبرت يا محمد !

تبعثرنا فى المدن نكمل دراستنا إلا محمد الذى قرر البقاء فى البلد يفلح الأرض التى أهملها أبوه ، ويرعى أمه التى لا يمكن أن تحيا وحيدة بعد أن أصبح أبوه دائم الغياب ، مرت السنون وتخرجت من كليتى ، عملت فى بلاد كثيرة وخالطت خلقاً كثيرين ، وكلما اشتد بى الوجد أتذكر لعبنا البرىء فى ساحة البلد وسرحاتنا على المصرف فى الليالى القمرية ، فيشدنى حنين جارف ونداء ساحر كنداء جنية البحر . ولم أقو على عصيان أمر الجنية الجميلة ، قلت أعود .

سألته : كيف حالك ؟

– أنا ؟ عليَّ رحمة الله ، لكننى أروح وأجىء .

– وأبوك ؟

– أخيراً قعد عن جولات البحث عن عبد الرحمن بعد أن تضعضعت قواه .

- وأمك ؟

- لاتزال تنتظر ، منذ أيام فاتحتها فى أمر الزواج ، إبنة حلال تحمل معى همومنا . قال أبى : عين العقل ، ولكن أمى غضبت وتركت لنا الدار لتعيش فى دار صغيرة ورثتها عن أمها .

- أستطيع أن أقنعها ، عندما ترانى بعد هذه الغيبة لن ترد لى طلباً .

كالغريق الذى يتعلق بقشة قال : تستطيع إقناعها ؟ قلت : أحاول . وقبلته مرة أخرى وشددت على كتفه ومضينا .

أخذ يبتعد ويصغر ، يبتعد ويصغر ، حتى رأيته ذاك الطفل المرح ، نطارد معاً الفراش والجراد ، نتسلق أشجار السنط بحثاً عن العصافير الصغيرة فى أعشاشها ، نقيم السدود فى الترعة الراكدة التى شح ماؤها ، نصطاد السمك ، تدمى الأشواك وحصى الأرض أقدامنا فلا نتألم ولا يمل القلب من الضحك .

ياه .. كبرت يا محمد !

كأننى لم ألبث إلا عشية أو ضحاها ، كان محمد قد أمعن فى الإختفاء وراء كومة التبن الكبيرة وأخذ يصيح : خلاص ؟ وكان علينا أن نتفرق بعيداً عن أعين العسكرى المختفى ونجاوبه : خلاص ، عندما شق ظلام البلد خطا نور جاءا من أول الشارع الكبير وامتدا حتى أوصلا الأرض بالسماء .

تسمرنا فى أماكننا عندما توقفت العربة الكبيرة ونزل الضابط ذو الشارب الكث ، وتقافز الجنود فزرعوا الساحة بأحذيتهم الكبيرة وفى أيديهم البنادق مشرعة إلى الأمام . وبإشارة من يده استدعى الضابط أحدنا فذهب يقدم ساقاً ويؤخر الثانية ؛ بينما هممنا نحن بالفرار ، لكن الضابط ابتسم للولد المتردد ولم يضربه ، فقط سأله إن كان يعرف دار العمدة ،

وأجاب الولد بهزة من رأسه تعنى نعم ، فأمره الضابط بالذهاب لاستدعائه . وتشجعنا لأن الضابط لم يضرب الولد كما توقعنا ، وأخذنا نقترب مترددين فلم ينهرنا الجنود ، مرت الدقائق ثقيلة ، نتقدم خطوة ونتأخر خطوة ، والجنود فى أماكنهم كأشجار توت تساقطت أوراقها ، والبنادق فى أيديهم متخشبة كقتيل أمضى يوماً كاملاً فى حقل الذرة ، كان لانكسار الصمت فى أعينهم حضور مريب .

وعلى ضوء السيارة الممتد بلا نهاية رأينا العمدة مقبلاً ككبش مذعور ، انتحى الضابط به جانباً وأسر فى أذنه كلمات جعلته يضرب كفاً بكف ويردد بصوت يقطعه اللهاث : لا إله إلا الله ، عبد الرحمن ؟ لا إله إلا الله .

وبدأ الهم الثقيل ينكشف لوعينا الغض ، نحن فى حرب مع العدو وعبد الرحمن فى الجيش ، أخوه محمد يحكى لنا عنه وعن الدبابة الكبيرة التى تتحرك على جنزير كجنزير كراكة حفر الترع ، تستطيع أن تمحو بلداً فى حجم بلدنا من الوجود . واليهود الذين يراهم عبد الرحمن عبر السلك بوجوههم التى ينط منها الدم . لابد أن عبد الرحمن مات ، قتله اليهود الذين ينط من وجوههم الحقد .

وكأن الأرض قد انشقت عن كل دود البلد ، رجالاً ونساء إلا أبا عبد الرحمن وأمه وأخاه المختبىء وراء كومة القمح يصيح : خلاص ؟ وبدأت السيارة تتحرك فى حراسة الجنود وخلفها سار الموكب ، كان الرجال يركضون خلف السيارة وكنا نقع تحت أقدامهم ونقوم نتابع الجرى ، بدد الجمع سكون المقابر التى احتلت الكلوبات شواهدها ونسى الشباب والصبية حرمة الأموات فارتقوا المقابر المحيطة بالمقبرة التى فتحت فمها كغول الحواديت الشره ، وانطلق صوت عمى أبو عبد الرحمن قادماً من الخلف يزعق : ابنى ؟ عوضى عليك يا رب .

وأصدر الضابط أمره بفتح مؤخرة السيارة ، وخرج الصندوق الكبير ملفوفاً بالعلم الذى نجأر له بالتحية كل صباح ، وصاحت النسوة ، وأطلق الجنود واحداً وعشرين طلقة .

قال واحد من الرجال : هكذا دون أن نصلى عليه ؟

رد الضابط : زملاؤه كفنوه كما يجب وصلوا عليه ، وشد على يد عمى « أبو عبد الرحمن » وقال : عبد الرحمن بطل ، مات فداء الوطن .. ثم انتحى به جانباً وسلمه مظروفاً وشرح له اجراءات صرف المعاش .

مات عبد الرحمن وانتهى ، ولكن كيف مات ؟ هذه حكايات لم تنته . تسابق الرجال فى ادعاء العلم بما حدث ، أحدهم قال أنه تحدث مع الضابط وعرف أن عبد الرحمن تسلل إلى دبابة العدو واحتضن ماسورتها مفتدياً عشرة من زملائه فتناثرت أشلاؤه ، وقال آخر أنه انتحى بأحد الجنود وعرف أن ما بداخل الصندوق ليس سوى قطع صغيرة من اللحم ربما تكون لعبد الرحمن وربما تكون لغيره ، وخمن البعض ألا يكون بالصندوق شىء من جثمان عبد الرحمن . وقال البعض لعله لم يمت أصلاً ، فى هوجة الحرب من يعرف ؟

وتناقلت النساء ما فاهت به أم عبد الرحمن عندما أفاقت بعد أن شمموها البصلة ، قالت أن عبد الرحمن جاء ليخطب عزيزة ابنة خاله لأنها اتفقت معه على ذلك فى الإجازة السابقة .

وفى طابور الصباح قال الاستاذ أن عبد الرحمن راح دفاعاً عن الوطن ، مات لنعيش جميعاً ، ويعيش كل الاطفال فى سلام . وصفقنا طويلاً لمحمد الواقف بجوار الأستاذ ، الذى راح أخوه فداء لنا . وكما تكرم الدولة أسرة الشهيد كنا نكرم محمد بيننا .. نتخاصم عندما يخطئ

أحدنا فى حق الآخر ، وكان محمد الوحيد الذى يخطئ فلا نخاصمه وإن فعلها أحدنا عنفه الآخرون : حرام عليك ، أخوه ميت .

ياه .. كبرت يا محمد !

عندما بدأ الرجل يكبر فى داخل كل منا تحول اللعب إلى سرحات طويلة على المصرف ، نتمشى جماعات فى الليالى المقمرة والموضوع واحد دائماً ، هذه نهداها وتلك ردفاها ، وثالثة مثل المهرة العربية . ومع تحرك النسيم فى الحقول تتحرك الرغبات ويتمدد الشيطان بين الفخذين ، يقاطع أحدنا الآخر ليحكى عن الصدفة التى جعلته يرى زوجة جارهم ، امرأة من المرمر رغم السن ، كانت تستحم فى طشت لحظة القيلولة فى باحة الدار عندما رآها من فوق السطح . ويحكى آخر عن الجارة الشابة نافرة النهدين التى طلبته ليكتب خطاباً إلى زوجها الغائب وكانت فى الحقيقة تريد شيئاً آخر .

وهكذا تمتد السرحات ويكثر الكلام ، نتفادى بالكاد من تمت لأحدنا بصلة ، ولكن فى وجود محمد يتحول الحديث إلى الأمور العادية وربما المواعظ الدينية وما أقل ما يمكن أن يقال فى هذه الموضوعات وما أثقله ، فبدأ الشباب يضيقون بمحمد وبصحبته ولكننى بقيت قريباً منه .

ياه .. كبرت يا محمد !

كان مرحه الطفولى قد دفن مع عبدالرحمن فى ذلك المساء البعيد ، فى البيت مأتم دائم ، اللحم حرام عليهم ، تصرخ أمه : تأكل ضناك يابو عبدالرحمن ؟ تأكل لحم أخيك يا محمد ؟

تعد الطعام ولا تأكل معهما ، سأنتظر عبدالرحمن ، وتصعد إلى السطح ، يتبعها محمد ، يرجوها أن تنزل ، تربت كتفه برفق : انزل أنت يا حبيبى أنا سأنتظر أخاك . يجلس بجوارها ، تقعد صامتة تجيل عينيها فى السماء ، وفجأة تبدأ فى الغناء : وقتيه يجينا الفرح ونعلق الزينة . يبكى بحرقة ، تتوقف عن الغناء ، تسأل مستنكرة : لماذا تبكى يا ولد ؟ عبدالرحمن راجع ، عبدالرحمن راجع يا محمد . يرجوها أن تعود فترفض بإصرار ، يتركها لا يعرف متى تعود ، أحياناً يشعر بها مع آذان الفجر ، تقول : أصلى لأكون جاهزة عندما يعود عبدالرحمن لأذهب معه إلى عزيزة .

كان محمد يروى لنا ما تفعله أمه ، وأبوه يروى لاصدقائه من الرجال . قالوا هذه المرأة فيها شيء لله ، وإصرارها على أن عبدالرحمن لم يمت له سبب ، قلب المؤمن دليله يا ناس وقلب الام لا يكذب .

وقال الرجل : قلبى أيضاً يقول أنه لم يمت ، قد يكون الآن مع بدو سيناء تزوج بدوية منعته من المجيء .. صلى الفجر وشد الرحال ، غاب أياماً ثم عاد وتكرر غيابه وكان يعود ليحكى للناس عن البدو الذين أكدوا أنهم رأوه ، وأقام بينهم أياماً ثم غادرهم ، ويدلونه على أماكن يحتمل أن يكون غشيها وديار ربما يكون طاب له المقام فيها .

على باب دارها جلست شاردة تنكث التراب بعود فى يدها ، سلمت وجلست . قالت : مين ؟

– سعيد يا خالة ، سعيد رفيق محمد .

– فينك من زمان ؟ كنت غايب زى عبدالرحمن ؟

ولما لم أجب قالت : خير كلكم لازم ترجعوا ، ضرورى ، ضرورى الغايب يرجع ، ضرورى .

قلت : يا خالة ، محمد ...

قاطعتنى : اعمل معروف يابنى ، قل له عيب ، عيب يتجوز قبل أخوه الكبير ، عيب نبقى مضحكة قدام البلد كلها .

قلت : لكن يا خالة ...

قالت : أبداً ، وغلاوة عبدالرحمن لو عملها لا يكون ابنـــــى ولا أعرفه .



مزرعة المشمش

يقذف الولد الكبير بالقرش الأصفر فى الهواء ، ثم يلتقطه ليهوى به على الأرض .

أقول : ملك .

تهتز يده القلقة بسرعة ثم يرفعها عن القرش المستريح فى صورة (كتابة) فأعد له من كيسى خمساً من نوى المشمش ، حتى أوشكت على الإفلاس .

قلت له : أنت غشاش ، فضربنى وحرض الصغار ليقاطعونى ، يعطى الواحد ثلاثاً من نوى المشمش ثم يسأله : أنت معى أم معه ؟

يقول أحدهم : أنا معك .

ويقول الآخر : أنا مع ربنا .

قلت : سأستفيد مما معى وأعوض خسارتى مع هذا الولد الغشاش ، سأزرع المشمش ، وعندما يكبر آكل الثمر وألعب بالنوى .

واخترت مكاناً هادئاً بجوار الجامع فى الحارة الصغيرة التى بها دار واحدة ، سافر أصحابها وتركوها .

ملأت حجرى بالتراب ووضعته تحت جدار الجامع متحاشياً عرض الطريق ، سويته على شكل مستطيل وقسمته إلى خطوط رفيعة أودعتها

ما تبقى معى من نوى المشمش ، ثم تسللت إلى الجامع على أطراف أصابعى حتى لا يستيقظ الشيخ عبدالمقصود النائم فى المصلى الصغير أمام الميضة .

فتحت الصنبور بهدوء ، ملأت فمى ويدى وأغلقت الصنبور برأسى وخرجت مسرعاً قبل أن يتسرب الماء من بين أصابعى .. أفرغت فمى ويدى فى المزرعة وهكذا عدة مرات حتى إرتوت تماماً .

جلست أعصر جلبابى المبلل ، أنظر إلى مزرعتى التى ستثمر مشمشاً .

فكرت : أنا اخترت لها مكاناً هادئاً ولكن ربما هاجمها الدجاج والبط السابح فى الحارات ، لابد أن أصنع لها سوراً يحميها .

وجمعت بعضاً من أعواد القطن المتناثرة وأخذت أغرسها فى حواف المزرعة حتى صنعت لها سياجاً كثيفاً .

قلت : هذا لا يكفى ، لابد أن أحرسها حتى يأتى المساء ويعود الدجاج والبط إلى دوره وأجىء فى الصباح قبل أن تطلع الشمس ويفتح الناس الأبواب للدجاج والبط ، سأفعل هذا كل يوم حتى تكبر شجرات المشمش وتبتعد أوراقها عن الأرض فلا يطاولها البط .

كانت الشمس المختنقة تكافح فى محاولة يائسة للبقاء عندما أسندت رأسى إلى الجدار وغفوت .

كنت أحلم بالحديقة تكبر وتثمر مشمشاً والولد الغشاش والذين معه يحاولون اغتصابها منى عندما هوت اليد الكبيرة على وجهى .

فتحت عينى .. كان ضوء الفتيل الاحمر المختنق يتمايل كنصل بارد يشق الظلام بصعوبة ، أشرت إلى مزرعتى لأبرر التأخر فى العودة إلى الدار .

وقبل أن أنطق بكلمة امتدت الساق ودكت القدم الكبيرة مزرعة المشمش .

أخي لا يأكل البرتقال

الكلب الاعرج يعوي فى الخارج : عووو .. عووو .

قالت أمى : عليك وعلى أصحابك يا أعرج الكلب . ثم بسملت وحوقلت .

خرج أبى بالعصا الغليظة التى يضرب بها الجاموسة عندما تضن باللبن . جرى الكلب الاعرج ، وقبل أن يدخل أبى الدار جرّ الكلب ساقه المكسورة وعاد إلى موقعه تحت كوة الغرفة التى نبيت فيها وأخذ يعوي كالذئب .

أخى الصغير يئن على صدر أمى . « آه » تخرج واضحة . كيف يقولها هو الذى لم يعرف الكلام بعد ؟

قالت أمى : استرها يا رب من هذا الفأل النحس . الكلاب تعوي عندما ترى الملاك عزرائيل .

ثم خرجت إلى باحة الدار .. كشفت رأسها حتى يستجيب الله ، رفعت وجهها ويمناها إلى السماء ، بينما ضمت يسراها الصغير إلى صدرها .

قالت : يا رب ، لا تخيبنى . أنا ولية غريبة ووحيدة . لا ترد دعائى . لا تكسر قلبى ، يا رب ، بحق هذا الليل البهيم .

وأمى من بلد غير بلدنا . تأتى جدتى لزيارتنا فى رمضان ومولد النبى ، ويأتى أخوالى لزيارتنا فى العيدين ، وترسل جدتى اللحم والخبز والارز ، وأحياناً الفطير والحلوى ، فى سلة تحملها امرأة إلينا فى رجب وشعبان ورمضان ويوم عاشوراء .

خافت أمى على الصغير لسعة برد منتصف ليل « طوبة » ، فعادت إلى الغرفة . كان أخى لايزال يتأوه كالكبار ، وكنت لا أعرف لماذا يتأوه أخى .. وكذلك أمى كانت لا تعرف .

قالت أمى : لطفك يا رب . أخرس مثل الطير ، لا يقول ما به . هو نفسه لا يعرف ، لكنه يتألم ، فينشطر قلبى . رحمتك يا رب .. ليكن ما به بى ، فأنا كبيرة أتحمل .

قال أبى : ناد لنا عمتك ، وأشار إلىّ ، فخرجت متسللاً بجوار الحائط لابتعد عن طريق الكلب الاعرج الذى يعوي . واسترقت النظر إلى السماء علني أرى الملاك عزرائيل الباسط جناحيه على البلد ، لكن السماء كانت خالية إلا من بصيص بعض نجمات بعيدة تشع من الفواصل الرائقة بين تلول الغيوم المتحركة .

باليد الحديد المثبتة على الباب طرقت ثلاثاً ، فخرجت عمتى .

قلت : أبى يريدك .

وسرت أمامها . كانت عينها المطفأة تغاضن بسرعة ، فتومض وميضاً يخيفنى ، فأرد بصرى إلى الأرص ، كان الكلب الأعرج لايزال يعوي . نهرته عمتى ولم يسكت ، فدخلنا .

جلست عمتى على الحصيرة فى الغرفة التى نبيت فيها ، وأخذت أخى فى حجرها ، وكان لايزال يئن وقد تعلق بصره بسقف الحجرة المظلم .

أوقدت أمي القوالح ؛ أحضرت الشبة والملح ووضعتها أمام عمتي ، وقالت : رقوة من يدك المباركة ، يا حاجة ، تذهب عنه الوجع .

وتثاءبت عمتي طويلاً ، وقالت : الولد منظور .. نظرة شديدة من عين حسود .

قالت أمي : رأته أم حسن .. صوبت إليه سهماً ، كأنها لم تر أطفالاً من قبل ، رغم أن أولادها وأحفادها بلا عدد .

قالت عمتي : عينها كسرت الحديد ، نظرت إلى وابور الحرث في حقلهم ، فتصاعد منه اللهب ، وعجزت مياه الترعة عن إطفائه .

وألقت عمتي في النار بالشبة والملح ، فأخذ يفرقع ، وهي تقرأ المعوذتين .

ثم أسرت عمتي في أذن أبي : الولد لن يطلع عليه نهار .. هكذا أعرف ، عيناه معلقتان بالسماء . هو الرضيع بلا خطيئة يرى عزرائيل ، والكلب لايزال يعوي .

سمعت ما أرادته عمتي سراً ، وسمعت أمي فغضبت ، وجذبت أخي من حجر عمتي ، وخرجت بشعرها المكشوف إلى باحة الدار : يا رب ، لا تخيب لي رجاء .. ولية ضعيفة وغريبة .

وكان أخي لايزال يئن بصوت خفت قليلاً .

قال أبي لعمتي : سأدخل لأنام . وإذا حدث شيء ، أرسلي الولد إلى الحاج علي .

ووجه حديثه إليّ : سمعت يا ولد ؟

أذن الديك . وكان صوت أخى قد خفت تماماً . ورغم هذا ، أصبحت « الآه » المتقطعة واضحة ينخلع معها القلب ، وتسيل لها دموع أمى .

قالت عمتى : لا تعذبيه ببكائك . دعي روحه تخرج فى سلام .

وانتزعته منها ، فوقعت أمى على الأرض تهبش من ترابها لتلقى على الرأس والوجه .

صرخت عمتى : يا كافرة ، علام تبكين ؟ هل ترك ملابس العرس ، أم جاء بنتاج كدّه ووضعه فى حجرك ؟!

صمتت فجأة لتنظر فى وجه أخى الذى خفت أنينه تماماً ، ثم بسملت وحوقلت وأطبقت عينيه والفم .

ضربت أمى خديها وصرخت ، وأمرتنى عمتى أن أفعل ما أمرنى به أبى .

وعندما عدت مع عمى ، كان أبى جالساً ممسكاً برأسه ، وأمى تضرب صدرها بعد أن نهرها أبى ومنعها من لطم الخدين . وكان أخى لايزال فى حجر عمتى ، وقد بدت غمازتاه على وجهه الصافى المبتسم قليلاً .

سلّم عمى وجلس .

وطلب طشتاً ، فأحضرت .

وطلب ماء ، فلبيت .

وقطناً وإبرة وخيطاً ، فأحضرت عمتى .

قال لأمى : وحدى الله . هذا أنفع لكما ممن سيمتد بهم العمر . سيشفع لكما يوم الحشر . الله أحبه فأراحه من أوجاعه وهموم الدنيا .

وقالت عمتى : لا تخافى عليه وحشة . سيلقاه جده ، يؤنسه وبه يأتنس .

ثم بكت عمتى ، وقامت مسرعة إلى باحة الدار .

أخى سيذهب إلـى جدى ؟ سيضع جدى يده فى جيب صدريـه ، ويخرج له الرطب وأقراص النعناع والكراملة ، كما كان يفعل معى . كان يفعل ذلك كل يوم ، لكنه ذهب . منذ أسبوع وأسبوع وأسبوع ، جاؤوا به محمولاً من الجامع ، وامتلأت دارنا بالرجال والنساء .

بكى أبى ، وبكى عمى ، وناحت أمى وعمتى وزوجة عمى .

عندما سألت أمى عن جدى يوماً وراء يوم وراء يوم ، قالت : إنه لن يعود .. ذهب إلى الجنة .

سألتها : هل عنده فى الجنة رطب ونعناع وكراملة ؟

قالت : وبرتقال ورمان وفاكهة كثيرة .

وعندما سألتها أن تأخذنى إلى جدى فى الجنة ، قالت : كلنا سنذهب ، لكن ليس الآن .

فلماذا يذهب أخى إلى جدى الآن ؟ ولمـاذا لا أذهب أنا ؟ جدى كان يحبنى أكثر ، وأخى لا يأكل البرتقال أو الرطب .

وقف عمى وحمل أخى المدثر بقطعة من القماش الأبيض ، مخيطة عليه بإحكام . وأحضر أبى فأساً ومقطفاً . قالا : سنعرج إلى الجامـع لنصلى عليه أولاً .

كان النوم يداعب جفونى ، وكانت أمى لاتزال تبكى . وعندما نفدت الشمس من كوة الغرفة التى نبيت فيها ، توقفت أمام دارنا السيارة . نزل أخوالى ، ونزلت جدتى ، وأخرجت السلة المغطاة بمصلى من القطيفة ،

عليها مسجد بقبتين وثلاث مآذن . أزاحت جدتى الغطاء قليلاً ، وأخرجت لى برتقالة ، ونبهتنى ألّا أطلب غيرها ، لأنها ستذهب بالباقى لزيارة أخى .

وأخذت أقشر برتقالتى وأنا أفكر : لماذا تذهب جدتى بالبرتقال إلى أخى ؟ أخى عنده برتقال كثير ورمان ورطب ، وهو صغير لا يأكل البرتقال ...

أردت أن أقول هذا لأمى ، لكنها كانت لاتزال تبكى .

فرح في البندر

اشتدت الحركة ، الرجال يتنادون بأصوات عالية ، النساء يحملن السلال المملوءة بالأرز والسكر وزجاجات الشربات وأقفاص الحمام والبط . يتناولها أحمد العنانى يضعها بعناية فى مؤخرة العربة .

جرت البنت إلى الغرفة التى يبيتون فيها ، أنشبت يديها فى كثف الخرق المختلطة على الحبل المشدود بين وتدين فى زاوية الغرفة أخرجت جلابية العيد النظيفة .

« سأذهب إلى البندر مرة أخرى ، أنام على السرير الطرى الذى لا يتسلل إليه برغوث فى الظلام » .

بالأمس جاء عمها وأخبر أباها أن فرح ابنته غداً ، وأنابه فى إبلاغ الدعوة لكل أقربائهم الذين يجب أن يحضروا .

« سأرتدى الجلابية النظيفة ، أجرى مع بنات عمى فى الشارع النظيف المبلط مثل البيوت ، سيكون فرح ابنة عمى جميلا » .

احتضنت جلبابها ، بزغ أمامها بيت عمها والمنتزه بكراسيه الرخامية ووروده وأشجاره . سال اللعاب فى حلقها ، أغمضت عينيها وأخرجت لسانها تلحس الجيلاتى البارد قبل أن يسيل ، لاتزال تذكر ، كان عمها يعطيها القرش مثل أولاده تماماً ويخرجون إلى المنتزة مع نسمة العصر ،

يشترون الجيلاتى ، تجلس إلى كرسى الرخام ، تتابع أولاد عمها إذ يمرحون أو تقوم تلعب معهم على استحياء ، كانت عيناها متورمتين كحبتى طماطم ، أخذها أبوها إلى الطبيب فى البندر ، كتب الطبيب الدواء وطلب رؤيتها بعد أسبوع . قال عمها تبقى عندى بعيداً عن الحر والتراب حتى يراها الطبيب مرة أخرى ويتم الشفاء .

إرتدت الجلابية ، بحثت عن حذاء ، كان عندها شبشب فى العيد لا تعرف أين ذهب ، خافت إذا لم تجد الشبشب فلن يوافق أبوها على صحبتها ، فى البندر ينتعلون الأحذية . ومن أراد أن يزور البندر فعليه بالنعلين ، فكرت : الجلباب طويل يخفى القدمين ولن يفطن أبى فى زحمة انشغاله .

كان كل شيء قد تم ، أغلق العنانى مؤخرة السيارة التى تحلق الناس حولها ، أعلن أبوها أنه سيتكلم بلا حرج : العدد كبير ولا داعى لاصطحاب الأطفال . المهم أن يذهب الرجال لأنهم عزوة البنت وشجرتها . والنساء اللاتى سيشاركن بجهدهن فى الطبخ وخدمة الضيوف . وزعق لأخته التى تمسكت بابنها وأكد أن كلامه لا ينزل الأرض ، ثم أغلق الدار بعصبية فأعطت العمة لابنها قرشاً وأوصته بالبقاء على المصطبة مع ابنة خاله ، يعتنى بها وبالدار لانه رجل .

وتدافع الرجال والنساء إلى السيارة ودار العنانى حولها دورة يدفع الأبواب لتحجز اللحم المنداح للخارج ، ثم استقر على مقعده وجذب بابه بقوة ، وبدأ الدخان يتصاعد من مؤخرة السيارة التى استدارت ببطء تدهس التراب بعجلاتها المنبعجة .

وانفرطت من عين البنت دمعة عندما اعتدلت السيارة على الطريق مثيرة الغبار والزغاريد التى تصاعدت إلى السماء .

قالت البنت للولد : أنت معك قرش وأنا أعرف البيت ، هيا لنلحق بهم .

سارا على الترعة العارية من الظل الممتدة إلى البعيد كنفق ضيق وسط حقول الذرة التى تهتز مع كل نسمة هواء فتحدث أزيزاً يرتعد له الطفلان الصغيران . تصبب العرق منهما ، فرفع الولد ذيل جلبابه فوق رأسه وأحكمت البنت عقد « تربيعتها » خلف ضفيرتيها الصغيرتين .

قالت البنت : سنسير هكذا حتى نتخطى « الهدار » وعند آخر الترعة سنجد الطريق الطويل المرصوف المظلل بأشجار الكازورينا والذى يؤدى إلى البندر ، هناك سنجد بيت خالك فى الشارع المبلط ، مبنى بالطوبة الحمراء مثل سراى العمدة ومطلى باللون الأزرق وأمامه عمود نور يشع ضوءاً أصفر زاعقاً يخزى العين عندما تنظر إليه .

تساقط الخوف عرقاً بارداً على السيقان الضعيفة التى تسبح فى التراب إذ تصاعد حفيف أوراق الذرة فجأة ، التصق الجسدان الصغيران وطلب الولد من البنت أن تخلع حلقها وتخفيه فى دكة سروالها حتى لا يعرضهما للخطر .

وعندما لمحا أشجار الكازورينا العالية قالت : هناك ، عند هذه الأشجار تتصل الترعة بالبحر الكبير ، حيث الكوبرى الحديد الذى تقف أمامه العربات المسافرة .

قال مغالباً الخوف : نجرى لنرى أينا يصل أولاً .

وقفا تحت ظل الشجرة يلهثان وسط عدد الرجال المتطلعين إلى الطريق .

قالت : كأننا وصلنا . سنركب العربة من هنا وننزل عند عمود النور الواقف أمام بيت خالك .

وعندما توقف الأتوبيس قفز الولد ووراءه البنت ولكنه طلب من المحصل أن ينزلها لأن معه قرشاً واحداً وهى جاءت دون علم أمها ، نهرها المحصل ودفعها بقرف فسقطت . وقبل أن تعتدل أطلق الأتوبيس الدخان والغبار الخانق . مسحت بيدها دمعة مالحة تدحرجت إلى فمها وقالت : سأسير فى الظل على هذا الطريق حتى أصل إلى بيت عمى وأغيظ هذا الولد الجبان .

التزمت الشريط الترابى الضيق الذى تقطعه الجذوع الضخمة لأشجار الكازورينا العتيقة بجوار البحر متحاشية الطريق المرصوف الممتد كمارد عملاق بلا نهاية .

وأخذت العربات تقطع الصمت بين فترة وأخرى مثيرة الهواء الذى يقتلع الجسد الصغير : فتدق الساقين فى التراب حتى لا تطير إلى البحر .

كانت أشعة الشمس الساقطة من الفرجات بين الأعشاب المتشابكة قد أصبحت أكثر حناناً ، أحست بساقيها لا تحملانها والعطش يسحق الجوف الغض ، اختارت فجوة منبسطة .: نزلت متمهلة تمسك بإحدى يديها فى الزغب النامى على الجسر وبالأخرى ترفع الماء دفعات إلى الهواء لتلتقطه بفمها المفتوح حتى ارتوت وبللت جلبابها فزهت رسومه حتى تمنت أن يظل هكذا بعد أن يجف .

أسندت ظهرها إلى جذع الشجرة الكبيرة ، كانت الشمس قد سقطت فى حقل الذرة البعيد وبدأ الليل يهل بجيوش الظلام ، خافت أن يأخذها النعاس ، جَرّت ساقيها المتعبتين وواصلت السير .. البقع السوداء تتقافز أمام عينيها .. تذكرت أباها إذ يجلس أمام الموقد دافناً إبريق الشاى فى الجمر الأحمر . يحكى عن المارد الذى طلع له وهو يسقى الأرض فى الليلة المظلمة ، خرج أولاً كبقعة سوداء فى البعيد ثم أخذت البقعة تقترب

وتكبر وعندما وصله كان كحائط يصل ما بين السماء والارض ، قرأ آية الكرسى فزعق المارد زعقة جفلت منها الجاموسة المربوطة فى الساقية ثم رمى بنفسه فى الماء فتطاير الرذاذ حتى وصل إلى البلد .

سال الدمع حاراً على وجهها ، أنا لا أعرف آية الكرسى ، يا رب نجنى ، يا رب أنا بنت صغيرة ، عندما أكبر سأحفظ آية الكرسى .

فجأة بدد النور القادم من الخلف خوفها وعندما توقفت عربة النقل بمحاذاتها ، سألها الرجل الجالس بجوار السائق عن وجهتها . قالت : ذاهبة إلى بيت عمى فى البندر . سألها : تعرفين البيت ؟ أجابت نعم . فجذبها من يدها وأفسح لها مكاناً بينه وبين السائق وانطلقت السيارة تشق الظلام بثقة أخفت كل البقع السوداء وعادت إليها بعض طمأنينة جعلتها تتابع الرجلين إذا يتبادلان الحديث والسجائر ، أغمضت عينيها ، رأت ابنة عمها تجلس بجوار عريسها وأمامها الفرقة التى قال عمها أنه سيحضرها للغناء ، لابد أن الفرح جميل لابد أن أفراح البندر جميلة ، لمحت أنوار المدينة تتلألأ ، فرحت ، أعادت عقد « تربيعتها » حول رأسها ، تململت فى جلستها فانتبهت إلى قدميها الحافيتين ، خالطها حزن تحول بسرعة إلى خوف ، سقط قلبها بين قدميها ، لابد أن أباها سيضربها ، كيف لم أفطن لهذا من قبل ؟ ليتنى أستطيع أن أعود .. ليتنى أستطيع ، سألها الرجل : أين بيت عمك ؟

نظرت إلى عمود النور يشع ضوؤه الاصفر ، قالت : هنا .. أنزل هنا .

وعلى الطوار فى وسط الشارع وقفت ، أصوات نفير السيارات تتقاطع ، وضعت أصابعها فى أذنيها وأخذت تتلفت حولها ، كانت كل البيوت مطلية باللون الأزرق ، وكانت كل الشوارع مبلطة ومزروعة بأعمدة النور التى تشع ضوءًا أصفر .

قتيــل يا بلــد ...

قال الرفاق أكملت يا سعيد اختبـارات القـوة ، فزت برهـان قفـز المصرف فبلغت الشاطىء الآخر دون أن يبتل قدمك وحملت الحمار وسرت ثلاث قصبات(*) .

قال : وأصبح عليكم أن ترتدوا الطُرح ياولاد الكلب .

. قالوا : ولك فهيمة لا ينازعك عليها ولا يتقدم لخطبتها أحدنا ، وأنت تعرف أننا أكثر منك مالاً وأعز نسباً .

قال : وعد رجال ؟

قالوا : ليس قبل أن تجتاز اختبار الشجاعة .

قال : هاتوا ما عندكم يا أنجاس !

قالوا : تأخذ هذا الوتد ، تدقه فى المقابر وتعود لنذهب معك بهذه البطارية فترشدنا إلى المكان الذى دققت فيه الوتد فى قلب المقابر .

أحكم سعيد وضع لاسته حول رقبته وعلى صدره وقال : يا ولاد الأبالسة .. الليلة مظلمة كالكحل الاسود .

(*) القصبة مقياس للمسافة والمساحة يستخدمه الفلاحون ، والقصبة تساوى حوالى (٣,٥٥ متر) .

قالوا : لك فوق فهيمة أقة حلاوة طحينية بورقتها غير منقوصة أو ملموسة .

ذهب سعيد بالوتد وجلس الرفاق فى انتظاره ولكنه لم يعد حتى انتصف الليل فداخلهم الخوف .

قالوا : نذهب لنرى ، العفريت لا يخرج لأكثر من ثلاثة معهم بطارية تكشف للأمام عشرين قصبة .

تقاطعت الأصوات والأصداء تبدد رهبة المقابر : سعييد ، واصطدم شعاع البطارية بالعملاق الملقى أمام مقبرة الصاحى .

قالوا : لابد أن الملاك الحارس قيده وضربه حتى أفقده الوعى لتجرئه على حرمة الأموات .

التفوا حوله ، أسلطوا شعاع البطارية على عينيه فلم ترمشا ، هزوه فاهتز كعود الخيار الذابل ولم يجب ، امتدت الأيدى إلى الصدر تتحسس النبض .

صرخوا معاً : مات !!

ودارت العيون فى المحاجر لتتفق دون كلام ، انسحبوا فى صمت وتفرقوا كل إلى داره .

ومع صياح الديكة استيقظ الناس على صراخ الشيخ نصار المقرىء يشق شارع دائرى البلد ويزعق : قتيل ياباالااد .

وخرجت القرية وراء الشيخ كسرب الجراد وتحلقوا حول المارد الممدد جاحظ العينين عريان الساقين .

وجاء الطبيب الشرعى وتم رفع الجثة بعد تخليص الجلباب من الوتد ، وبعد التشريح جاء تقرير الطبيب ليؤكد أن الوفاة حدثت نتيجة لصدمة عصبية ، وتم استدعاء الرفاق الذين أكدوا أن سعيد العملاق كان جباناً وأن الخوف والارتباك جعلاه يدق الوتد على ذيل جلبابه ولابد أنه هم بالجرى فمنعه الجلباب المشدود إلى الوتد فتصور المسكين أن يداً امتدت من المقبرة لتمسك به فمات من الرعب .

الحوار الاخير بين مسعد وأم الخير

حل الحزام ورماه ، ألقى بالجسد المنهك على عتبة الدار .

ضربت أم الخير صدرها وقالت : أعوذ بالله من الشيطان ، ماذا أعادك يا مسعد قبل أن ينتصف النهار ؟

أجابها مسعد مسبل العينين : لا أعرف ماذا دهاني ، فى الصباح رد جوفى ما به ، تجالدت لكننى سقطت بين الأنفار ثلاث مرات .

– ومن أين نأتى بأجر ثلاثة أيام قبضتها مقدماً واشترينا بها كيلة الذرة ؟ .

غداً يفرجها حلال العقد .

جست جسده المعروق بيدها وقالت : لعلها ضربة شمس .. اخلع لى دكة سروالك الصوف وسأربط رأسك وأعصرها كبصلة فتخرج منها الشمس وأدلك لك جسدك بماء الملح فتذهب الحرارة وتصير بارداً كالثلج .

أشعر أنى ذاهب يا أم الخير .. بالأمس رأيت أبى ، .. خففت إليه .. قلت ماذا تريد يا أبى ؟ .. قال أريدك أنت يا مسعد لتؤنس وحدتى ، فالسفر طويل ، والطريق موحش .

– لا تكن خوافاً هكذا يا رجل ، أحلامك لا تصيب ، وما أدراك لعل عجزك كان مكشوفاً .

ثم اصطنعت العطف الشحيح وقالت : لابد أن تأكل شيئاً يسندك .

حاول مسعد فتح عينيه المسبلتين لكن خذله ثقل الجفنين ، فقال وهو لايزال على حالته تلك : أقول لك الحق .. نفسى ذاهبة لبيضة مسلوقة .

نسيت أم الخير الظرف الذى يمر به رجلها لأنها تصورت أنه نسى الظروف التى تمضى بها حياتهما ، وأجابت بعنف – من أين يا رجل ، البيض يأخذه عامر البقال لقاء ما نأخذ من زيت وجاز وخيط وإبرة والشاى الذى تشربه كالتوتيا السوداء .

أجاب مسعد مسلماً بالقضاء : فماذا عندك ؟

قالت : لفتَ مخلل جديد تأكل أصابعك وراءه .. إن شئت أتيتك بما تريد ، عروق خضراء كاللوبيا أو رؤوس بيضاء كالزبد .

قال مسعد بشيء من الرجاء والعتب : يا ولية مادام خير ربنا كثير هات بعضاً من هذا وبعضاً من ذاك !

لكن مسعد لم يأكل من اللفت هذه المرة ، فقد عادت أم الخير لتجده كور حزامه تحت رأسه وأسلم الروح .. كانت عيناه مفتوحتين وكان يبتسم .

الموت يزور القرية

سرى الموت فى القرية كما تسرى النار فى الوقيد ، المغسلة لا تجف ولم تعد إلى مكانها فى صحن الجامع ، بل أصبحت تركن فى الشارع بجوار جدار المضيفة فى انتظار من يصيبه الدور .

أصبح الموت حدثاً عادياً ، كل مشكلته أنه بات معوقاً لمصالح العباد .

اقترح عبد الله أبو حسين – وكان مسموع الكلمة – تخصيص فترة القيلولة لتشييع الموتى ، حيث يصلون الجنازة على من يتصادف وجوده بعد جماعة الظهر ، ووافق الجميع ، وكان أبو حسين أول من طبق عليه هذا النظام ، فقد مات عصر ذلك اليوم وبقيت جثته حتى ظهر اليوم التالى .

الشيخ « الصي » أكد أن ما أصيبت به القرية ابتلاء من الله نتيجة البعد عن كتابه وسنة نبيه ، وأكل مال اليتيم بغير الحق ، وأكل بعضهم لحم بعض بالغيبة والنميمة . وأوجب الشيخ صلاة أسماها « صلاة النجاة » كانوا يصلونها بعد الظهر ، وبعدها يصلون الجنازة على الحاضرين من الموتى .

رئيس مجلس القرية كتب إلى رئيس مجلس المدينة : الموت يتخطف الناس فى القرية ، ولكن لا داعى لانزعاج سيادتكم ، فالأمر محصور

فى عائلات دراز وعبدالمؤمن ودرويش ، وكما تعرف سيادتكم فهم ضدنا دائماً وكانوا ضد سيادتك شخصياً ، وأنا لا أقلب مواجع قديمة على سيادتكم ، ولكن أردت أن أطلع سيادتكم على حقيقة الأمر حتى لا تنزعجوا ، إذا ما وصلكم الخبر عن طريق آخر .

ودمتم لنا ولناس المركز ،،،

المخلص / عبدالقادر المحلاوى

رئيس مجلس القرية

فوزى الحلاق قال إنه سمع عن داء جديد لم يعرف الطب له علاجاً ، ثم كف عن الطقطقة بالمقص فى الهواء وقرب فمه من أذن محمود أبو إمام المتربع أمامه وقال بصوت خفيض : يقال والعياذ بالله أنه يصيب الشواذ ، ثم ألمح إلى أن الذين ماتوا حتى الآن معظمهم مشكوك فى أخلاقهم وعندما طلب منه إيضاحاً أكثر قال : هل تستطيع أن تقول لى لماذا امتنع المرحوم محمود أبو دراز عن الزواج حتى هذه السن ؟ وسليمان درويش وسعيد عبدالمؤمن ، هل تفسر لى سر العلاقة بينهما ؟ .. لكن ماذا نقول ؟ إن الله حليم ستار وقد أمرنا بذكر محاسن موتانا .

حفيظة زوجة محمود أبو إمام قالت لنظيرة إنها سمعت حديث الحلاق لزوجها وعندما نقلت نظيرة هذا الكلام الخطير لفهيمة ، خبطت الأخيرة صدرها وشهقت : يا خرابى !

وفهيمة ، دون نساء القرية ، أكملت تعليمها حتى الإعدادية ، ولذا فقد أقسمت أن هذه القرية ملعونة وملعون رجالها كقوم لوط الذين خسف الله بهم الأرض .

لم يتوقف الموت ، ولم ينقطع الكلام .

تتلاقى النساء فى الطرقات ، تسأل إحداهن الأخرى : مَنْ اليوم ؟

تقول : فـلان .

تقول الأخريات : قُطُع .. هذا الذى كنا نحسبه ولياً ؟!

وكتب رئيس مجلس القرية إلى رئيس مجلس المدينة : الشائعات تؤكد أن « الإيدز » وراء حالات الموت المنتشرة فى القرية ، ولا يخفى على سيادتكم المعنى وراء انحصار الموت بالإيدز فى العائلات إياها ، وقد أصبح الجميع فى القرية والقرى المجاورة يعرفون أن هذا المرض سببه عدم العفة !

هذا فقط للعلم ، وأدعو الله أن يعينكم على ما فيه خير البلاد ومصالح العباد فى المركز .

عبد القادر المحلاوى
رئيس مجلس القرية

بدأت رقعة الموت تتسع ، وخرج من عائلات درويش ودراز وعبدالمؤمن ، وكان أول من مات من عائلة المحلاوى الشيخ عبدالفتاح عم رئيس مجلس القرية .

وتزعمت فهيمة حركة عصيان ضد الرجال . وأخذت تؤكد أن الله سيدك القرية بمن عليها إلا من يهدها الله وتنضم إلى الحركة .

واضطر الشيخ « الصي » لأول مرة فى حياته إلى الخروج على الموضوع الذى حددته وزارة الأوقاف لخطبة الجمعة ، وأخذ يتحدث عن جريمة اللواط وعقوبتها . وأوصى الناس وإياه بتقوى الله ، وذكرهم

بالحديث الشريف « يأتى على أمتى زمان يصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر » . وبعد هذه الخطبة ، اقتنعت كل النساء بدعوة فهيمة .

وكتب رئيس مجلس القرية فى برقية عاجلة إلى رئيس مجلس المركز : إلحاقاً بكتابينا السابقين ، نرجو سرعة بحث الموضوع ، فقد خرج الموت من العائلات المناوئة ، وأخذ يضرب فى جنبات القرية كالحدأة العمياء . وتمردت النساء على الرجال ، حتى أن أم العيال رفضت أمس أن تمكننى مما أحله الله لى .

ولم تصل هذه البرقية ، فقد مات الرجل قبل أن يذيلها بتوقيعه ، ولو لم تقع فى يد فهيمة لظلت طي الكتمان ، كسر الموت الذى حصد رجال القرية . لكن الذين يزورون مقر الحركة النسائية يجدون البرقية محفورة على قاعدة من الرخام تحمل تمثالاً لرجل مقطوع العضو ، يعتقد المؤرخون أنه لرئيس مجلس القرية .

الشيخ زكريا النحَّاس

(١)

أطلق ساقىّ للريح ، أدوس ظله الذى يسابقنى متقافزاً تحت قدمىّ كمخلوق خرافى ، أصل إلى نهاية الحارة المسدودة ، أقفز من الشباك الواطىء إلى دار عمى عبدالصادق المهدمة ، يقفز ورائى فأصرخ .

تهدهدنى أمى : بسم الله الرحمن الرحيم ، عذبالله من الشيطان .

تسألنى عما بى ، أجلس باكياً : الشيخ زكريا يطاردنى يا أمى .

تقول : قُطـع .

ثم تقبلنى وتلفنى فى الحرام الصوفى الدافىء لكن الخوف يمنعنى من متابعة نومى .

كان أصغر الستة الذكور وأكبر من البنتين ، قدموا مع أبيهم مبيض النحاس إلى البلد بعد طول تجوال فى البلاد ، أعجبهم أهله ، فاستوطنوه وأصبحوا بعضاً من ناسه ، مات الأب ودفن به ، واستقل كل ولد ببيت وزوجة وتزوجت البنتان من رجلين من أهل البلد . وبقى زكريا التلميذ بالمعهد الدينى مع أمه فى دكانها الذى تبيع فيه الخضار .

يأتى إلى أخيه الذى أصبح جارنا بعد أن اشترى الدار الصغيرة التى كانت حزءًا من دارنا ، ينصب معه الخيمة ، يجهـزان حفـرة النـار ،

ويجلس أخوه إلى الكير ينفخ النار بينما يقف الشيخ زكريا فى الجهة الأخرى من الحارة فى حلة النحاس الكبيرة يجلو صدأها بقش الأرز المبلل والحصى ، وجهه إلى الجامع مستنداً بيديه إلى الحائط ، وقدماه تتراقصان فى الحلة فى أداء منتظم ، ثم يقفز إلى الأرض ، يرفع الحلة ويغمسها فى طشت المياه ويناولها أخاه الجالس أمام النار ، حيث القصدير يزيل ما تبقى من الصدأ ، ثم يرفعها الشيخ زكريا بالماسك ويلقى بها فى طشت الماء مرة أخرى فتحدث أزيزاً ويتصاعد البخار ، ينتشلها الشيخ زكريا ، يركنها إلى الجدار لامعة ويعود لغيرها .

وفى آخر النهار يطفىء مع أخيه النار ، ويفكان الخيمة المشدودة بين حائط دارهم وعودين من الحديد ، يرتب الشيخ زكريا الأوانى على شكل هرم ، الأكبر فالأصغر ، يحملها على رأسه ويمضى إلى الحارات ، يوزعها على أصحابها .

وبعد العشاء يعود إلى الدكان ، يفترش جوالاً خلف أقفاص الطماطم والبرتقال أمام الباب ، وأمامه فتيل يتراقص فوق قفص مقلوب ، يمسك بالمصحف يرتل القرآن ، أو يستذكر دروسه .

كنا صغاراً نجرى وننزق ولم يكن يقيد طفولتنا سواه .

فى النهار يقول الولد : نعمل أرضاً ، نزرعها قطناً ونصُف الأولاد ينقون الدودة . وتقول البنت : نعمل فرناً ، أصنع لكم فيه الخبز الطرى .

وتقف أمامنا المشكلة الصعبة ، فالماء ضرورى لرى الأرض ، ولابد منه لبناء الفرن وتحويل تراب الأرض إلى عجين تخبزه البنت . ولأن أحداً منا لا يجرؤ على العودة لداره لجلب الماء فلا مفر من ولوج الجامع ، ولكن كيف والباب فى مرمى بصر الشيخ زكريا ؟

يتجاسر بعضنا ويتسلل ، يلمحنا الشيخ زكريا ، يقفز وراءنا فنركض وهو يلاحقنا بقامته العملاقة كمارد مخيف ، وعندما نتأكد أننا أصبحنا

بعيداً عن متناول يده نكون قد وصلنا إلى أول المصرف خارج البلد ، فنتناثر على الأرض نلتقط الأنفاس .

وفى الليل كانت اللعبة المفضلة « عسكر وحرامية » وكان الشيخ زكريا يترك كتابه ليطارد أولاد الكلب الذين يقطعون عليه حبل تفكيره .

وكانت فرصتنا فى اللعب الآمن تأتى كالقدر دون ترتيب ، فبعد أن نفقد الأمل فى إمكانية سهوه ، وتتخلى عنا الجرأة على المغامرة ، نتكوم فى ظل الحيطان ، تحكى لنا البنات حواديت « أمنا الغولة » و « الشاطر حسن » و « عقلة الإصبع » ، وفجأة تبدد الصرخة هدوء القيلولة ، ويسقط الشيخ زكريا بعد أن يرتطم رأسه بالحائط ، يتجمع أولاد الحلال ، يحملونه مع أخيه إلى داخل الدار .

نجرى ونتكوم أمام الباب ، فينهرنا الرجال ، نعود صامتين إلى جلستنا فى ظل الحائط يلفنا حزن ثقيل ، ثم نتذكر أننا نستطيع أن نلعب فى حرية تامة حتى مثل هذا الوقت من الغد دون خوف من الشيخ زكريا فيدب النشاط ، يزرع الأولاد الأرض وتخبز البنات أرغفة الطين .

(٢)

لكى تصدق نفسى أننى صرت كبيراً ، كان لابد أن أثبت لها أننى لم أعد أخاف الشيخ زكريا .

عقب صلاة العشاء رأيته أمام الجامع وسط حلقة من الشباب ، يحاورونه حول شرعية الاحتفال بالمولد النبوى الذى اقترب ، رأيته يتكلم ويستمع ويناقش كغيره من الناس ، وكان فى هذا جديداً شجعنى فحاولت الإشتراك فى الحديث ، وقبل أن أتم كلمتى ؛ سلط الشيخ عينيه علىّ ، وجذبنى من تلابيبى ورفعنى فى الهواء قائلاً : مالك يا أخى وأحاديث الرجال ؟

طار جلبابى فى الهواء ، ولم أكن أرتدى سروالاً فظهر ما بين فخذى ، ضحك الشباب وصاح الصبية الذين فى مثل سنى .

كان الخجل يأكلنى ، ولكن فى النفس بعض الغبطة ، فقد مازحنى الشيخ زكريا .. الشيخ زكريا يضحك وينزق مثلنا ؟!

(٣)

عشت أسعى لصداقته ، وكنت في أيام الشباب الأولى أغتبط عندما يرانى الناس جالساً مع الشيخ زكريا ، أتناقش معه ، أضحك ملء صوتى ليرانى الصبية والأطفال الذين يخشونه مثلما كنت وأنا فى مثل سنهم .

ثم دار الزمن دورته وتخلى الناس عن استخدام النحاس ، ماتت المهنة التى توارثها الأبناء عن الأب ، ولم يعد الشيخ زكريا يبرح دكانه إلا للصلاة .

أخرج معه عقب صلاة العصر ، نقف طويلاً أمام الجامع أو نذهب إلى الدكان ، ولم أجرب دعوته إلى دارنا . رغم قربى منه كانت لاتزال فى النفس بعض الرهبة ، فلم أكن أتوقع أن يدخل الشيخ زكريا البيوت ويأنس إلى أهلها .

كلما تصورت أننى صرت قريباً منه صحوت على حقيقة البعد ، إن لم أبادره بالسلام مضى جهماً سارحاً فى البعيد ، أقول : لعله نسينى .

وعندما ألقاه فى المرة التالية أنظر فى عينيه فتدوران فى محجريهما ولا ترمشان، أقول: إنه نسينى. ولكن غموضه يأسرنى، فتشتعل رغبتى فى التواصل، القى السلام فيرده، أسأله عن حاله فيحمد الله، أقول: قابلتنى بالأمس ولم تعرنى انتباهاً ، يسلط عينيه علىّ للحظات ، فأتأكد أنه نسينى ولاأشأ أن ارهق ذهنه المكدود فى البحث عن هذا المتطفل

الواقف أمامه ، أين يا ترى سمعه أو رآه ؟ ، أسأله عن القصيدة الأخيرة ، هل أنجزها أم لاتزال تؤرقه ؟

وعلى الفور يتذكرني ، فليس سواى فى البلد من يسأله عن الشعر ، يبتسم لى فى ود معتذراً ، لا أعلق بل أمضى فى حديث الشعر أسأل ويجيب ، ويتلو علىّ من قصائده فأعود فرحاً إلى أصدقائى ، أحدثهم عن الشيخ زكريا الذى أعرف وهم لا يعرفون .

.. الذى يمزح أحياناً ويكتب شعراً مشرقاً وجميلاً .

كان يحتفظ بأشعاره منسوخه بخطه الجميل فى كراسة ، فإذا وجد مفكرة جميلة أعاد نسخ الأشعار ، فإن كتب جديداً ضاقت به المفكرة بحث عن أكبر منها وأعاد النسخ من جديد .

وكنت أستعير مفكرته ، أقرأ على أصدقائى بعضاً من أشعاره المرحة ، وأتساءل : أهذا الشعر السهل المشرق يمكن أن يخرج من الشيخ زكريا ؟ وأنى له كل هذه الخبرة بالنساء هو الذى لم ينظر إلى امرأة قط ؟!

(٤)

كشروق الشمس كل صباح ، تراه بعد أن يصلى الفجر فى جماعة يعود إلى دكانه يحمل جوال البطاطس على ظهره إلى السوق خارج البلد ، فى الجانب الآخر من المصرف الذى يتخطاه على جذع نخلة يهتز تحت قدميه المثقلتين ثم يعود مرة أخرى لنقل قفص الطماطم ، ثم جوال الخيار وخلفه أمه تحمل الميزان ، يجلسها فى مكانها من السوق ثم يعود إلى الدكان ، يرتدى القميص والبنطلون ويلف التلفيحة الصوف حول أذنيه ويحمل كتبه تحت إبطه ، ثم ينطلق يشق الطريق المترب مسافة سبعة كيلو مترات ليوفر القروش القليلة التى يدفعها غيره لسيارات الأجرة ، ثم يستقل الأتوبيس المتجه إلى الزقازيق ، وفى آخر النهار يعود شاقاً الحقول كمارد صلب .

أنفق من عمره عشر سنوات فى الثانوية العامة وحدها ، بسبب نوبات الصرع التى كانت تنتابه أثناء الامتحانات ، وبسبب مجالس التأديب وكنت أسأله فأعرف منه طرفاً من خبر صدامه بإدارة المعهد أو ثورته على مراقب الامتحان الذى لا يراقب ضميره وعادة ما تنتهى المشادة بضرب المراقب وحرمانه هو من الامتحان عاماً أو عامين ، أما قصة مرضه فكنت لا أجرؤ أن أسأله عنها ، وهل حاول العلاج أم لا .

كان يوم حصوله على الثانوية الأزهرية فرحاً فى « ميت سهيل » كلها ، التحق بكلية اللغة العربية واجتاز السنوات الثلاث الأولى بنجاح ، بعد أن فارقه شيطان الصرع ، ولم يعد جنى الغضب يوسوس له ، فبدا راضياً عن أساتذته ودراسته ، أدى امتحان الليسانس وبات يحلم بمستقبل لا يبيع فيه الخضار ولا يضطر فيه إلى الصبر على مساومة امرأة حول ثمن نصف كيلو طماطم .

يحدثنى عن آماله التى يريدها أن تتحقق ، يقول : قبل كل شىء لابد أن تهنأ أمى بشيخوخة سعيدة هى التى لم تعرف الراحة أو الفرح يوماً .

وأقطع الصمت الحزين الذى ساد بيننا وأقول مازحاً : وأنت يا شيخ زكريا ماذا تريد لنفسك .. ألم تضع عينيك على بنت الحلال ؟!

يقول : أنا ؟

ويشرد بعينيه إلى البعيد ويقول : أنا تعبت وأريد أن أستريح .

(٥)

انفلتُ من العربة الصغيرة التى انحشرنا فيها سبعة رجال ، أخذت أقطع شارع دائرى البلد ، ألقى السلام فيرتد إلىّ السلام باهتاً وهو حسير ، ليس ككل مرة أعود فيها ، إذ أقرىء السلام جمعاً من الناس فيأتى الرد

جماعياً يدفىء القلب الموجوع ببرد الغربة فى المدينة ، وأسمع الحمدلله على سلامتى ، وربما يسألنى أحدهم عن أحوالى وعيالى ، وربما تطوع أحدهم وبيَّن لي أن أبي كان معهم وأنه ذهب إلى مكان كذا ، وربما قام واحد من زملاء الدراسة القدامى ليعانقنى ويؤكد أنه كان فى سيرتى منذ لحظات . لكن شيئاً من هذا لم يحدث . مات الشيخ زكريا إذاً ؟ مات وألقى موته بعباءته الثقيلة على البلد ؟

عندما وصلنى النبأ لم أصدق ، فلم أكن أنا ولا أى من أهالى ميت سهيل قد أعد نفسه لهذه المفاجأة ، ورغم هذا أتيت !

انزلقت إلى حارتنا ، المغسلة فى ظل الحائط مازالت تقطر ماء ، الأبواب مغلقة إلا باب المضيفة المفغور كقبر كبير ، الحارة تمتد نظيفة بين صفين من الحصير الممدود على الجانبين وقد استراح عليه بعض كبار السن ، بينما وقف الشباب فى جماعات .

أقرىء السلام وأواصل سيرى متلعثماً فى الشريط الترابى الضيق بين الصفين .

جذبت سقاطة دارنا وانزلقت إلى الداخل ، كانت أمى فى باحة الدار ، قبلت يدها وضمتنى فى هدوء صامت ثقيل ، جريت إلى المندرة وألقيت بنفسى فوق الكنبة أبكى بحرقة .

مات الشيخ زكريا ؟!

دخلت أمى ، جلست بجوارى وضمتنى ضمة تمنيت ألا تنتهى .

قالت : الموت علينا حق ، وحد الله .

قلت : ونعم بالله ، متى حدث هذا ؟

قالت : قبل أن تطلع الشمس وقف على سطح أخته التى سافر

زوجها ، يساعدها فى تخزين الحطب ، يلقى إليها بالحبل فتربط له حزمة ، يشدها إلى السطح ، وفجأة زعق زعقته المشهورة وسقط إلى الأرض ، جرى أولاد الحلال ، خرجوا إلى الزراعية بحثاً عن عربة تنقله إلى المستشفى وقبل أن يعودوا أسلم الروح .

بدأت الضجة فى الخارج ، لا إله إلا الله تتردد كطنين النحل ، دخل أبى وسألنى : أنت جئت ؟

أومأت مجيباً .

قال : هيا الميت خرج .

وألقى إلىّ جلبابه الصوف الأسود ، إرتديته ومضيت فى أثره ملحقاً بالجمع .

خرجَت ميت سهيل كلها فى موكب يشق الشارع بصعوبة وراء النعش المحمول بين أربعة من الرجال الأشداء ، نحيب أمه وأختيه يتقاطع ، يتطابق أحياناً ، فيأتى مع همهمات النسوة من الخلف مثقلاً للقلب .

فجأة يتوقف الموكب كموجة كسرها الشاطىء ، يقولون أنه يرفض التقدم .

يعلن أحد الرجال أن الميت يتأذى من أصوات النساء فى الخلف ، لا يريد نواحاً . ويتراجع آخر ، ينهر النساء فيسود الصمت ويبدأ الموكب فى التحرك .. خطوات ويشتد النواح ، يتوقف ثانية .

- يؤذيه النــواح .

- بل يرفض تجاوز دكانه .

- يا رجل يا بركة ماذا يخيفك ، أنت ذاهب للقاء ربك وصحيفتك بيضاء .. امض يا شيخ .

- ليت لنا نصف عمله .

- لماذا لا يتقدم ، متمسك بالشقاء ؟

- لعله خائف على أمه من بعده .

يسود الصمت من جديد ، يخف النعش ويندفع حاملوه إلى الأمام ، تنطلق من الخلف زغرودة ، ثم يهب النواح قاسياً ثقيلاً .

كأن الجمع يدب فوق صدرى ، قلبى ثقيل كصخرة ، تمنيت أن أبكى وأسلمت نفسى يدفعنى الذين هم ورائى ويمنعنى من السقوط الذين هم أمامى . تمنيت أن يظل هذا الموكب سرمدياً ، ولكننا كنا قد تخطينا الكوبرى إلى الطريق المترب وسط الحقول حيث تلوح المقابر باردة تنكسر عليها أشعة الشمس التى استسلمت لموت قريب .

ظلام المقبرة يمد ذراعيه من العين المفغورة ، لا يعجب لقادم ، ولا تصيبه الدهشة حتى من موت الشيخ زكريا !

ويرتفع النواح إذ ينزاح اللحاف الأصفر المذهب ، ويقوم الرجال بسحب المارد الملفوف فى ردائه الأبيض ، تفوح منه رائحة عطر رخيص . ويبسمل الشيخ مختار وهو يضبط دخول الجثة فى العين الكبيرة المظلمة ، تلهج الألسن بالتلاوة والدعاء ، ويحرك الرجال الصخرة الكبيرة لتسد العين ، ثم يهيلون التراب الرطب ، التفت إلى الجهة الأخرى ويسيل الدمع حاراً مالحاً ، ويرتفع من حولى النواح .

كان النهار قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، وسقطت الشمس فى الحقل البعيد عندما أكتشفت أننى صرت وحيداً فى صمت المقابر فقمت متثاقلاً ، انحدرت متخطياً الكوبرى إلى البلد .

رأيت حلقة من النساء والاطفال حول الغريب القابع خلف مقود الموتوسيكل ، ووسط ضجيج الموتور ومصمصات الشفاه عرفت أنه ساع بكلية اللغة العربية يوزع النتائج على الناجحين فى قراهم .

دسست يدى فى جيبى وأخرجت خمسة جنيهَات .

قال الرجل : ما من أجل البُشرى أتيت ، أريدك أن تدلنى على بيته ، أنا أعرف الشيخ زكريا شخصياً وأحب أن أبلغه الخبر بنفسى .

قلت : لكنه مسافر .

قال : ألن يعود اليوم ؟

قلت : بلى .

قال : إذاً هل ستلقاه قريباً ؟

قلت : ربما .

وتدحرجت على وجهى دمعة أحسست معها بثقل كبير ينداح من عينى .

أبداً .. هنية لم تقصر

هذا ما حدث بالضبط ، ولا يستطيع منصف أن يرمى هنية بالتقصير ، البنت كانت ستموت على أى حال .

البنت ليس لها حظ فى حياة لكن هنية لاتزال تبكى وتلعن أمها الحاجة التى لن تورد على جنة[1] وما كانت لتصدق أن البنت ستموت ، فقد دفنت منذ عام أمها ، ومنذ ثلاثة أسابيع ودعت ولدها ذا السنوات الثلاث ، بكت قدر طاقتها وعددّت :

والله إن جانى البخت لأقوله
خلى شوية يا بخت ماتميلوش كله[2]

هنية لم تكن تعرف أن البنت ستموت ، فقد تصورت من غفلتها أن البخت استجاب ، كما أنها لم تفعل ما يغضب الرب ليسلبها آخر من تحب .

الإسهال ليس السبب ، كل الأطفال يسهلون ويتقيأون ولكنهم يتماثلون سريعاً ويقافزون كعفاريت الظهيرة ، يملأون الحارة حفاة عراة لا يشعرون بلسع التراب .

---

(١) فى ريف مصر تنادى الكنة حماتها بـ « أمى » .
(٢) مراثى شعبية .

هل قتلها صهد الفرن ؟ ولكن ماذا كان بوسع هنية أن تفعل ؟ أمها الحاجة التى لن تورد على جنة أمرتها بقدح الفرن وخبز العجين ، ومن غيرها يخبز الأرغفة المدورة التى سترفع رأس أمها الحاجة أمام أصهار البندر ؟

وجهها متورد ككبد الذبيحة وابنة الشهور التسعة متكومة بجوارها كعجوز هزمها الدهر ، الرأس مدبب تطاير شعره ، العينان غائرتان لكن لهما نظرة تخترق قلب هنية كسيخين محميين ، تمنت لو ألقت بالمطرحة على الأرض لتحتضن صغيرتها ، تهدهدها ، تردها إلى حشاها لتلدها صحيحة من جديد ، فاض الدمع من عينيها وجرى شلالات على الخدين ، اليدان لا تكفان عن ضرب العجين بالمطرحة فى الهواء حتى يرق وتتسع دائرته فتلقمه للفرن المتأجج وبعود الحديد تخرج الأرغفة الناضجة لترصها فى عمود يتطاول .

لو أن الحاجة التى لن تورد على جنة أخذت البنت بعيداً عن الصهد ! لكن هنية لم تكن تستطيع أن تطلب هذا ، فالحاجة لا تحمل أطفالاً يبولون حتى تظل طاهرة للصلاة .

هل ماتت البنت عطشى ؟ .. أبداً العطش لا يقتل بهذه السرعة ، لكن ماذا تقولون فى قلب الأم ؟ هنية كانت تتمنى لو بللت ريقها بكوب ماء بالسكر .. الثدى جف من حرقة الحزن على الأم والولد وكوب ماء بالسكر كان سيطفئ نارها الآن لو أن البنت شربته قبل أن تموت ، ولكن ماذا كان بوسع هنية أن تفعل ، طلبت من الحاجة التى لن تورد على جنة : والنبى يامه الحاجة شوية ميه بسكر للبنت .

وردت الحاجة من الغرفة المجاورة : تطفحه .. إحنا فى هَم البنت دى الوقت ؟

وما كان لهنية أن تقول بعد ؟ .. بلعت العلقم فى حلقها وواصلت ضرب العجينة فى الهواء لتتسع دائرة الرغيف وتستوى وفجأة إنفجرت فى البكاء والعديد :

بلدك بعيده يامه قولى لي على بلدك
اخذحمولـى يامـه وأمشى علـى مددك[1]

جاءت أمها الحاجة ونهرتها : ماتنصبيش المحزنة يا بنت الكلب .

مسحت هنية دموعها ولم ترد ، وأخذت تهش الذباب الذى تكاثر على وجه البنت ، مدت يدها إلى الكوب المتسخ ، نظرت إلى سطح المـاء واصطادت الذبابة الميتة بعصاة وقربته من فم الصغيرة .

تحسست البنت المـاء بلسانها وقالت عيناها كلاماً وبصقت الروح والمـاء الساخن المترب .

صرخت هنية لكن أمها الحاجة تقدمت وأسبلت الجفنين وحملت البنت وهددت : طلاق تلاته زى الرجالة إن اتحركتِ تحرم عليكِ دارى .

هذا ما حدث بالضبط قبل أن يعود سعيد زوج هنية بالسيارة الأجرة التى ستحمله وأمه والرجال والبط والخبز إلى البندر .. شهادة حق ، لقد حاول سعيد التخلف لتكفين ابنته والصلاة عليها ودفنها لكن أمه نهرته وأمرته ألا يفسد فرح أخيه من أجل ضفدعة فغداً سيبول غيرها . والشيخ مختار سيتولى مع الجيران مراسم دفنها فى غيابه كما فى حضوره .

وتحركت السيارة وأصبح لدى هنية متسع من الوقت لتبكى ، لكن لو بللت ريق البنت بكوب ماء بالسكر لخمدت النار المتأججة فى أحشائها الآن .

---

(٢) مراثى شعبية .



اعتقـــال

لم تكن تعرف كم مضى من الوقت وهى قائمة هنا تحتضن فسيلاتها فى حنان ، كانت فقط تعرف كم تحب العصافير ، تطعمهم ، ترحب بمن يقرر إقامة عشه فى قلبها ، كم أحبت حبات الندى ترصع سعفها ، كم أحبت مداعبات النسيم .. حتى اللبلاب والعليق عندما يتسلقها ، الأشواك بما تنشر من فوضى وعنف وصخب أحبتها .

كانت تستقبل أسئلة فسيلاتها النزقة بابتسامة خفيفة .. إحداهن تسألها : لماذا الافراط فى الترحيب بالعصافير ولماذا تدعينهم يبنون الأعشاش فى قلبك ، يخرأون ويتناكحون بلا حياء ؟ وتسأل أخرى : لماذا الابتسام للنسيم الذى يغرر بسعفك فيداعبها ويساقط حبات الندى لينمو اللبلاب والعليق وينمو الشوك .. ؟

وكانت تجيب بإبتسامتها : عندما تكبرون ستعرفون كل شىء .

وذات صباح كانت النخلة كعادتها توشوش النسيم عندما انتبهت على رائحة كريهة وضجة محركات لم تلبث أن توقفت وتقافز الرجال بالبلط فى أيديهم ، أحست النخلة بالأرض تميد من تحتها ولكنها تمالكت نفسها حتى لا تضعف أمام فسيلاتها .

وعندما هوت البلطة لتنزع منها فصيلها الأول كتمت النخلة توجعها وأوصت الفسيلة ، قالت : بنيتى .. نحن خلقنا للحياة وليس للموت ، لكنه فراق يعقبه لقاء .

بكت الصغيرة وقالت : بعيداً عنك وعن اخوتى لن تطيب الحياة ، سوف أستسلم للموت ، به أسلوكم وأستريح .

قالت النخلة : لن تكونى ابنتى .. نحن معشر النخل لا نحب الموت ، اذهبى لتعيشى ، وستجديننى معك دائماً ، سوف تشعرين بيدى كل صباح تربت وجهك فى مداعبة النسيم ، وستأتيك أفواج العصافير برسائل حبى ، اذهبى لتصنعى الحياة فلسنا للموت خلقنا .

وأخفت النخلة دموعها وقد جفلت لتمام انفصال الفسيلة ، كان الرجال يواصلون عملهم بدأب شديد .. طوحوا بالفسيلة الأولى بعيداً وواصلوا ضرباتهم بالبلط على الثانية والثالثة .

وفى كل مرة كانت النخلة تحبس دموعها وتوصى فسيلاتها ، ثم أحست بنفسها تقف وحيدة وبالرجال يحيطونها ، والبلط التى انتزعت صغارها شرعت تقطع سعفها .

كانت الضربات موجعة وكثيراً ما تعدت السعف إلى الجذع وكانت النخلة تتجالد وتقول : هذه ضريبة الحياة ، الناس أيضاً يولدون هكذا بقطعة جلد زائدة ثم تمتد يد الطبيب أو الحلاق لختانهم فيصبحون رجالاً صالحين .

لم تبك النخلة ولم تسب الرجال ، ولم تزد على أن تنظر إليهم وقد انتزعوا كل سعفها ولم يبق إلا الرأس مدبب بسعف القلب الغضة ، وصارت كمن أفرط فى الشراب ، نسيت أوجاعها وكأن هذا الجذع الذى أثخنته البلط لا يخصها وأخذت ترمق الرجال الذين بدأوا يحفرون حولها بلا إكتراث ولكنها كانت تستيقظ كلما إمتد طرفها إلى صغارها المتناثرين على الأشواك .

اتسعت الحفرة تحتها وإمتدت الأيدى لتوثقها بالحبال المشدودة إلى السيارة ، وعاد ضجيج المحركات وتصايح الرجال وتوترت الحبال فجأة

لتجد النخلة نفسها ممددة على الأرض وسط صيحات النصر . ثم تحلق الرجال حولها من جديد ، عصبوا رأسها بقطعة خيش مبللة ثم ألقوا ببلطهم إلى السيارة وتقافزوا وراءها .

انطلقت السيارة تنفث دخانها فى وجه النخلة وهى تجرها لتسحق الأعشاب التى طالما داعبتها ، ثم استوت السيارة على الطريق الأسفلتى الصلد يدغدغ جذع النخلة الذى استيقظت جراحه .

وأبصرت النخلة نفسها أمام بوابة أنيقة عندما توقف السائق وحيا موظفاً فى حجرة صغيرة قام ليفتح الباب . دخلت السيارة ثم توقفت أمام حفرة كبيرة منتظمة تنتصب بجوارها رافعة آلية .

تقافز الرجال من السيارة وأحاطوا بالنخلة التى لم يعد لديها نفس للمقاومة ، فكوا عنها الحبال واستسلمت لهم وهم يوثقونها من جديد بسلاسل الرافعة وأخذوا يتصايحون وهم يوقعونها فى الحفرة ، وطفقوا يخصفون عليها من التراب والحجارة ثم انتصبوا بالتحية لرجل أنيق بشارب ممشط ، دار الرجل الأنيق حول النخلة دورة كاملة ثم أشار للرجال الذين جاءوا بخرطوم الماء وبللوا التربة حولها ثم تفرقوا .

تلفتت النخلة فوجدت نفسها بين نخلات كبيرات مثلها تمتد جذوعها لعدة أمتار معصوبة الرأس مثلها فى صف واحد وقد انحنت رؤوسها الذابلة ، اللبلاب لا يتسلق أى نخلة هكذا وإنما يرتفع على دعامات خشبية ملونة غرست لهذا الغرض ، الزهور فى أحواض مستديرة أو مستطيلة والنجيل يحتل باقى المساحات فى وقار مهذب لا ورقة أكبر من ورقة ولا الزهور تستطيع أن تنمو مكان النجيل ولا هو يستطيع أن يشاركها أحواضها ، يفصل بينهما سياج من العشب الشوكي ولكنه مقصوص هو الآخر ومهذب ، حتى الناس فى هذا المكان الأنيق يمشون أزواجاً

أزواجاً ، البعض يتهامسون ويتهادون لا ينظرون إلى أمام أو خلف ، والبعض يتنابذون فجأة ثم يهرولون خلف الطفل الذى اقتحم برعونته سياج الأشواك .

كان الأطفال وحدهم يبتسمون اعتقاداً منهم أن النخلة تبتسم لهم ، لكن الحقيقة أنها لم تكن تبتسم أو تبكى ، كان مصير فسيلاتها يؤرقها ، كانت تريد أن تتحدث إليهم طويلاً قبل أن يموتوا أو تموت لكن النسيم كان شحيحاً .. وسعفها قصير ومعصوب .. ولم يكن بالحديقة عصافير .

ثانياً : التصـــاوير

تصويرة لم تبدأ

قال الولد يستدرج البنت : تعالى لنرى ، فأنا لا أذكر أين كتاب الهندسة الذى تريدينه .

قالت البنت وقد أعجبها استدراج الولد : لعله فى هذه الحجرة .. وأشارت فدخل الولد وخلفه البنت ، عبث بالأشياء ولم يجد الكتاب ، قال : لعله فى الحجرة الأخرى .

سارت البنت وأمامها الولد ، ولكنه نسى أنه يبحث عن كتاب .

وفى الغرفة الثالثة تصبب عرق الولد وأخذ صدره يعلو ويهبط بعنف .

ضحكت البنت وعرفت أن الولد يريد شيئاً ولكنه يخاف ، فخرجت .

وندم الولد بعد أن تيقن أن البنت كانت تريد شيئاً . ولكنه لم يفهم فغضبت !

وكان قد نسى أن يتعجب : لماذا جاءته البنت وهو وحيد فى البيت تطلب كتاباً عندها مثله ؟!



تصويرة عادية

نظر فنظرت ، تبسم فسرت ، حيا فردّت .

قال : أنت أجمل أنثى فى العالم .

قالت : أنت أوسم من رأيت .

طلبها فوافقت .

كان ميسور الحال ، أغدق عليها من حلاله ومن حرامه . وفجأة انفصلا .. كانت حياتهما تسير كالمعتاد ، فقط كانا توقفا عن الكذب .

تصويرة في تسعة أيام

فى اليوم الأول : تلا عليها كل ما كتب عن الحرية ، فسمعت .

فى اليوم الثانى : دعاها إلى جلسة على مقهى ريش ، فقبلت .

وفى اليوم الثالث : أعارها كل ما كتب عن الحب ، ففرحت .

وفى اليوم الرابع : دعاها إلى سرحة على الكورنيش ، فرضيت .

وفى اليوم الخامس: أهداها روايات إحسان عبدالقدوس ، فثملت .

وفى اليوم السادس: أبرز لها تذكرتى السينما ، فعانقت .

وفى اليوم السابع : دفع إليها بالسير الذاتية لاشهر الساقطـــات ، فارتابت .

وفى اليوم الثامن : لوح لها بمفاتيح شقته ، فتغابت .

وفى اليوم التاسع : دعاها صراحة إلى شقته ، فرفضت .

قالت : أما هذا فلا أقبل أن أكون لك زوجة .

قال : أنت تخططين للإيقاع بى فى هم مديد ؟

قالت : أنت تفتش عن لحظة متعة عابرة ؟

وعندما احتدمت المناقشة .. افترقا صديقين .

تصويرة بالعكس

خاصمها النوم فى تلك الليلة . وزاد ضجرها من المستلقى بجوارها يخور كالثور المذبوح .

قامت تتمشى فى الغرفة ، أحصت سنواتها معه فنفدت مع أصابع اليد . وأحست بثقل الدهر .

على النور الخافت قابلت وجهها فى المرآة فلم تعثر على أثر لدم أحمر ، وعندما عرجت العينان إلى الرأس أجهدتا فى البحث عن أثر لشعر أسود .

وعندما فارقت المرآة لم تجهد ذاكرتها فى البحث عن يوم أبيض .

نظرت إليه ، فكرت : هذه ليلة أخرى من الأرق ، وهو يواصل خواره كالثور المذبوح .

أعجبتها الكلمة الأخيرة فكررتها ثم ابتسمت ، وركبت على صدره ، أنشبت اليدين فى الرقبة . ثم طفقت تخصف عليه من أكياس القمامة ، توارى سوأته .

وفى الصباح أعلن أمام جموع المعزين أنه لن يفكر فى الزواج بعد شريكة حياته التى خطفتها يد القدر .

تصويرة غرير

ألقى الولد بالسيارة التى تجرى على عجل والطيارة التى تجرى على عجل والأرنب الذى يجرى على عجل ، والكلب الذى ينبح بالكهرباء ويجرى على عجل .

بكى وقال : لا أريد كل هذه الأشياء التى تجرى على عجل ، أريد أمى .

قال أبوه : ألست تريد أخاً ، معه تمرح وبه تأتنس ؟

قال : بلى .

قال : إذن فأمك ذهبت إلى المستشفى ، ستغيب يوماً ويوماً ويوماً وتعود لك بطفل جميل هو أخوك .

قال الولد : أنا جئت من السوق ، كل الأولاد يجيئون من السوق ، فلماذا أخى يأتى من المستشفى ؟!

قال : أمك قالت لك هذا ؟! لا بأس ، ولكن لم يعد فى السوق أطفال فى مثل حسنك فلجأت أمك إلى المستشفى .

قال الولد : فليكن ، ليأت أخى من المستشفى ، ولكن أريده مثلى ، لا أريده يجرى على عجل .

[إلى كل من تروعه أجهزة « الأمن » فى هذا الوطن]

تصويرة وبها : كلام عن الورد والصبار

قال مذيع النشرة : « تفيد التحقيقات أن المرأة وليست الحكومة وراء حادث موت زعيم الطلاب ، كما أشاع البعض ، فقد كان الطالب سائراً على الطوار الأيمن بأحد الشوارع عندما صدمته سيارة الأمن المركزى ، فلقى حتفه فى الحال ، وبالتحقيق تبين أن القتيل كان ينافس سائق السيارة على قلب ابنة الجيران » .

رفس محمد الهواء بساقيه وضحك .

قالت أمه : « يضحك الرضيع عندما يحلم أنه فى حديقة جميلة يقطف الورد ويجرى وراء الفراشات الملونة » .

قال المذيع : « وقد أعلنت الحكومة أنها لن تخضع لمحاولات الابتزاز وأنه لا رجعة فيما اتخذته من قرارات برفع أسعار بعض السلع الترفيهية كالخبز والرز والسكر » .

قطب محمد جبينه .

قالت أمه : « عندما يحلم الرضيع أن أباه طلق أمه يقطب الجبين » .

قال المذيع : « عادت الحياة إلى طبيعتها ، وسيطرت قوات الأمن على الموقف تماماً بعد أن تحفظت على مثيرى الشغب ، الذين سيواجهون تهم الخيانة العظمى بالتخابر مع جهات أجنبية ، والتحريض على قلب

نظام الحكم بالقوة ، وترويـع الآمنيـن ، وتعـريض السلام الاجتماعـى للخطر » .

أخذ محمد يبكى وانسابت دموعه على الأرض الميتة ، فتشققت عن أشجار كبيرة للشوك والصبار .

قالت أمه : « يبكى الرضيع عندما يحلم أن أمـه قد ماتت ولكـن لا تنبت عيونه كل هذا الصبار » .

تصويرة عنوانها : أنا الملك

حدّثت جدتى فقالت : اجتمعت الشمس والقمر والصعلوك والملك .

قالت الشمس : أنا الملك ، أمد جرم شعاعى لينمو الزرع فيأكل الملك ويأكل الصعلوك ويأكل الناس البين بين .

وقال القمر : بل أنا الملك بما أعرف من أسرار العاشقين ، أنا سيد أسرار الليل ، أسمع حتى دبيب النملة الذكر فى سعيها للنملة الانثى .

فقال الملك : أنا الملك ، اسمى الملك ، عندى خزائن الأرض ، أفتحها – إن شئت – فيأكل جنودى ويأكل الصعلوك ويأكل الناس البين بين . ولى فى كل شبر عين ترقب حتى دبيب النملة الذكر فى سعيها للنملة الأنثى .

قال الصعلوك : كيف تحكمون ؟! أنا الملك ، لولاي ما كان الملك ولا كانت جنوده ولا كانت عيونه . أنا أروى للقمر الحكايات حتى ينام ، فتطلع الشمس التى لا تطلع إلا إذا نام القمر . وعندما أجوع أسب الملك فتسمعنى عيونه ويأخذنى جنوده ، يضربوننى ويسجنوننى ويطعموننى ، فأصحو حتى ينام القمر وتطلع الشمس ويموت الملك .

تصويرة لـ : أفندية .. ورز وعسكر

كان الوالد يتوجع من آلام ظهره عندما سأله الولد فى براءة : لماذا خلق الله لنا الظهر يا أبى ؟

قال الوالد : لأنه يمكننا من الإنحناء طوال الصيف للعناية بالرز وعندما يخيب المحصول ونعجز عن التوريد للحكومة يستدعينا العسكر فيحمينا الظهر من الضرب على البطون .

قال الولد : ولماذا تأخذ الحكومة محصول الرز ؟

قال الوالد : لأن الأفندية فى البندر لا يأكلون اللحم أو السمك إلا بالرز .

ومن يومها تعلم الولد أن يكره أفندية البندر الذين يأكلون اللحم والسمك والرز .

شكوى فى تصويرة

بعد خصام بينهما دام ثلاث عشرة دقيقة قالت البنت التى صارت أماً منذ عام وثلاثة أشهر وثمانية أيام : تعال لتنظر ماذا صنع ولدك !

وكان الولد الذى صار أباً منذ عام وثلاثة أشهر وثمانية أيام قد أعلن منذ ثلاث عشرة دقيقة خصاماً لأجل غير مسمى ولكنه تنهد وقال : ابنى لا يؤذى أحداً ، أدبته فأحسنت تأديبه .

جاهدت البنت لكى تظهر غضباً لا تعانيه وقالت : إذاً تعال لترى ، لقد أخرج القمامة من كيسها ونثرها فى حجرة الجلوس ، وجر وسادته ورمى بها فى المطبخ ، وكسر الكوب وأسال الحليب على سجادة غرفة النوم .

تبسم الولد ، فهو يعرف أن البنت لا تقصد الشكوى ، وإنما تريد تكئة لتقطع خصاماً دام ثلاث عشرة دقيقة . وقام لا يضمر شراً لولده ، ولكن ليرى بعينيه أنه صار أباً وعنده ولد يملأ البيت بالفوضى والحياة .

سـؤال فى تصويرة

استلقيت – كعادتى – على الأريكة أقرأ الصحيفة فصعد أحمد إلى جوارى وتمشى – كعادته – فوق صدرى ، فبطنى ، ثم إنحدر جنوباً ليجلس فى الفرجة بين ساقىّ والمتكأ ، ثم دفعنى بيديه ورجليه آمراً : « إتح إباب » .

فتحت الباب ، أنزلت ساقىّ فنزل فرحاً ثم حاول حملهما آمراً : « سك إباب » .

أطعته وأغلقت الباب إذ ساعدته على حمل ساقىّ إلى الأريكة ، لكن أحمد لم يعجبه إنشغالى بالصحيفة فنزعها من يدىّ وألقى بها أرضاً .

هممت بالضحك ثم بكيت ، تساءلت زوجتى فى هلـع عن السر فمسحت دموعى ولم أجب ، فلم أشأ أن أقول لها إننى خفت الموت فجأة ، فالناس – بالكاد[1] يحبون أبناءهم – فمن يحب أبنائى إذا أنا مت ؟

---

(١) بالكاد : خطأ شائع فرض سطوته علىّ .



تصويرة للحلم ... تصويرة للوطن

ويرسم الولد فى كراسته سنبلة ووردا وبلبلاً ، ويحلم بالبيت والظل والوطن ، ولكنه يصحو على البيت المهدوم فوق الأب واللعبة .

ويأخذه الجنود ذوو القلوب والأحذية الصلبة ، يستجوبونه : لماذا ترسم سنبلة ووردا وبلبلاً ؟ ولماذا تعشق البيت والظل والوطن ؟

ويمزقون كراسته ، لكنه ينجح فى إخفاء حلمه فى أعماق قلبه .

ويشب الولد ويتشقق الحلم عن ألف حجر وألف ألف ذراع ترسم حدود الوطن القادم .



تصويرة محروقة

كانوا – ثلاثتهم – يعبرون الشارع ويحدون من إنطلاق العربات الفارهة ، مما اضطر أصحابها لأن ينظروا إليهم باحتقار .

قال الأول : عشش الظلم وباض وأفرخ فساداً .

وقال الثانى : ولابد أن نفعل شيئاً وإلا كنا قوماً خاسرين ، لقد حرم الله الظلم على نفسه وجعله بيننا محرماً .

وقال الثالث : الباطل اشتد ساعده ، ولن نستطيع معه إلا أضعف الإيمان ، نرفضه بقلوبنا .

قال الأول والثانى : .. وبعد فترة نستعذب الظلم وتعتاد جلودنا السياط !

فقال الثالث : إذاً نلتقى كل يوم ، ندون خواطرنا المترعة بالأوجاع وهكذا لا ننسى .

فى اليوم الأول كتب الأول : هذا آخر الزمان ، الحفاة العراة يكذبون ويسرقون ويتطاولون فى البنيان ، والمخلصون من أبناء هذا الوطن لا يجدون ما يسد الرمق .

وفى اليوم الثانى كتب الثانى : الظلم يسعى بيننا على ساقين من حديد ، واشتد ساعداه اللذان يحمى بهما لصوص هذا الزمان وعلى الفقير السلام بعد أن أصبح كل شيء فى هذا البلد سياحياً .. الأرز سياحى ، الخبز سياحى ، حتى العلاج أصبح سياحياً !

وفى اليوم الثالث شوهد الثالث على شاشات التليفزيون يعرب عن أسفه للمشاهدين ولرجال المباحث لما أصاب صديقيه اللذين أصبحا يهذيان بكلام غريب هذه الأيام .

الفهـــرست

صفحة

ثانياً - التصاوير :

■ **دار سعاد الصباح**

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة .



